آل المهلب

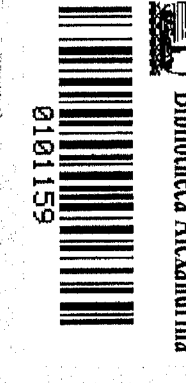
في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحربي حتى سقوط الدولة الأموية

دكتور

عبد المنعم عبد الحميد سلطان

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية المساعد

كلية الآداب بسوهاج ـــ جامعة أسيوط



مؤسسة شباب

الجامعة

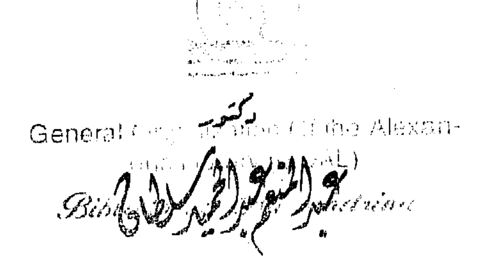
للطباعة والنشر

الاسكندرية

١٩٩٠

آل المهلب

في المشرق الإسلامي ودورهم السياسي والحربي حتى سقوط الدولة الأموية



دكتور

عبد المنعم عبد الحميد سلطان

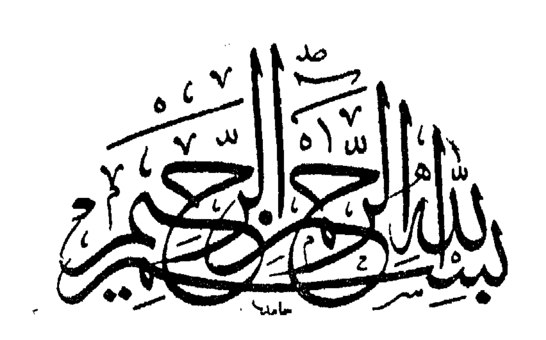
أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية المساعد

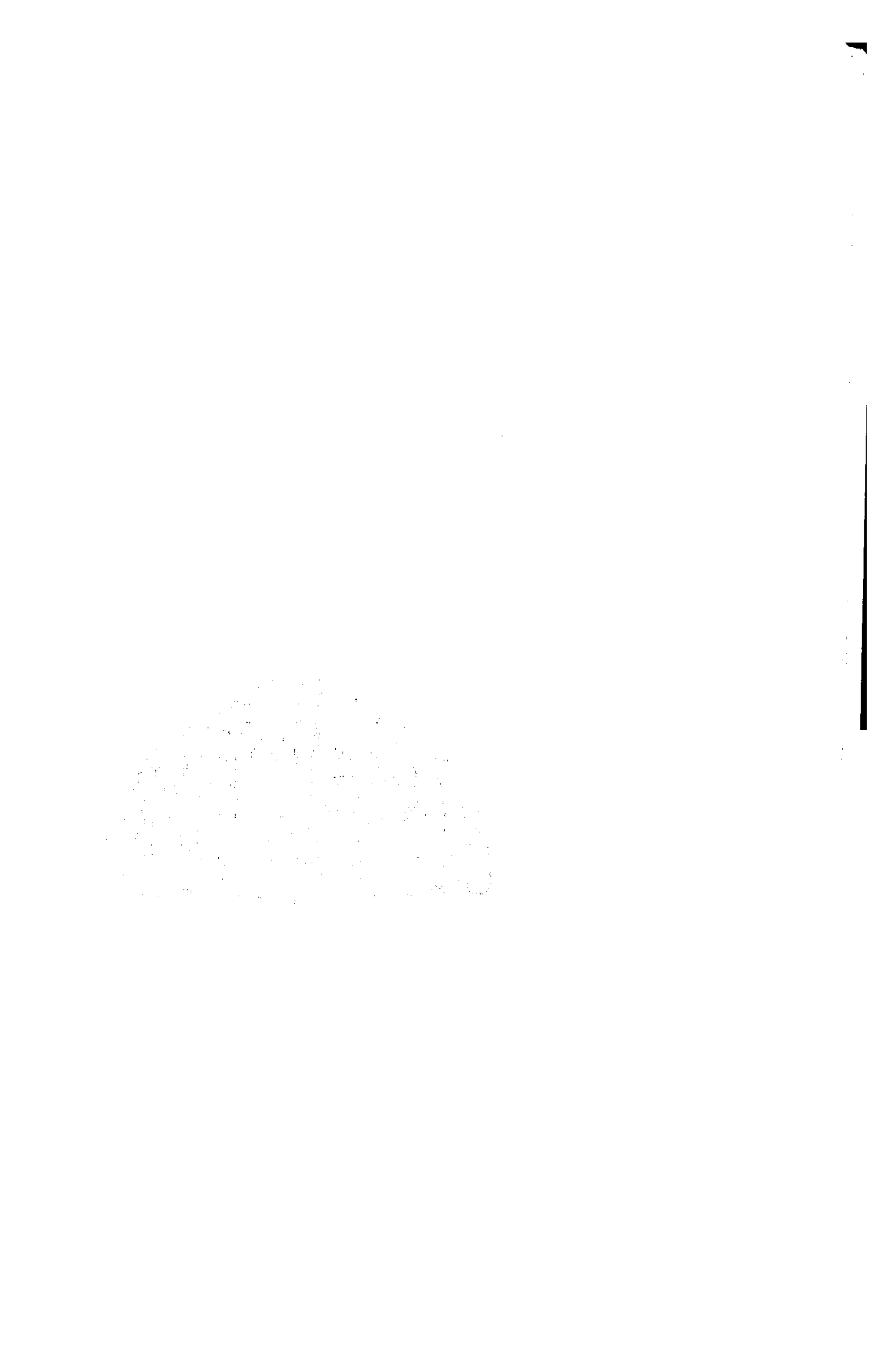
كلية الآداب بسوهاج — جامعة اسيوط

مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر

الاسكندرية

١٩٩٠





مقدمه

يتناول هذا البحث تاريخ آل المهلب فى المشرق الاسلامى ونشاطهم السياسي والحربى حتى نهاية العصر الأموى • وقد حاولت من خلاله القاء الضوء على هذه الأسرة العريقة التى كان لها دورا مؤثرا فى حركة الفتوحات الاسلامية فى صدر الاسلام ، كما تصدت لحركات المعارضة وكان لها مواقف مشرفة فى الصراع ضد الخوارج الأزارقة الذين روعوا العالم الاسلامى فى المشرق وأثاروا الذعر بين الخاصة والعامة •

وقد تعرضت هذه الأسرة الى تشهير متعمد من جانب عناصر من الشعوبيين وكتاب المثالب ، ونحن فى هذا البحث لم نقف أمام هذه الحالة لننفى ما ذهب اليه بعض هؤلاء من الطعن فى نسبهم العربى ، والاساءة اليهم ، فان نسبهم وانتماءهم الى قبائل الأزد قضية حسمتها معظم المصادر التاريخية ، ولا مجال للشك فيها • فنجد الحجاج بن يوسف الثقفى فى احدى رسائله للمهلب يقول أنه قد اختاره لحرب الأزارقة وفضله على رجال من مضر « •• وهو رجل من أهل عمان •• من الأزد •• » وما كان الحجاج أو غيره من مؤرخى المسلمين يجهلون نسب المهلب ، وما قيل غير ذلك فهو ضرب من التعدى على الحقائق التاريخية •

وفى الفصل الأول حاولت ابراز دور أبى صفرة والد المهلب خلال عصر النبوة والخلافة الراشدة ، فتاريخ أبى صفرة طغى عليه شهرة ابنه المهلب ، ولم يحظ باهتمام المؤرخين ، فهو من أوائل الذين اعتنقوا الاسلام بين قومه أزد عمان ، كما يأتى ذكره فى المصادر من بين القواد الذين ساهموا فى حركة الفتوحات الاسلامية فى المشرق فى عهد الخليفتين عمر وعثمان وكان أبو صفرة يقود فرقة من قومه الأزد وكان يصحبه من أبنائه : النجف والمغيرة وحبيب •

وجاء ذكر المهلب لأول مرة فى حياة أبيه فى حملة المسلمين على سجستان فى أواخر خلافة عثمان (٣٥هـ) ، وبوفاة أبى صفرة حوالى سنة ٣٧هـ تنتقل زعامة الأسرة الى ابنه المهلب ، لتردد المصادر نسب الأسرة كلها اليه فيطلق عليهم أحيانا «المهالبة» وأحيانا « آل المهلب » •

وخلال الفترة السفيانية من تاريخ الدولة الأموية ، حقق المهلب شهرة واسعة كأحد الأبطال فى مجال الحرب والجهاد فى الجبهة المشرقية مما رفع من شأن المهالبة وجعل ولاة خراسان يحرصون على أن يصحبهم المهلب ورجاله الى خراسان ليكونوا سندا لهم فى معاركهم هناك • وفى أواخر هذه الفترة تظهر براعة المهلب السياسية وحسن تقديره للأمور عندما اشتعلت الصراعات بين القبائل فى خراسان فى أعقاب وفاة يزيد بن معاوية ، وكان والى خراسان (سلم بن زياد) قد انسحب منها تاركا ادارتها للمهلب ، وقد أغضب هذا التصرف عناصر من المضرية، وتنازعت القبائل للسيطرة على خراسان وتمزقت أقاليمها فيما بينهم ، وقد آثر المهلب فى هذا الجو المضطرب أن لا يكون طرفا فى هذا الصراع، فانسحب برجاله وآل بيته وأقام بالبصرة يرقب الأحداث •

وتناولت فى الفصل الثانى علاقة المهالبة بثورة عبد الله بن الزبير ، وهى فى رأينا علاقة طبيعية نتيجة لوقوع العراق وأقاليم المشرق وأهمها خراسان تحت نفوذ ابن الزبير ، ولما كان المهلب أحد القادة المشهود لهم بالكفاءة فى هذه المنطقة فقد سعى ابن الزبير حثيثا ليضم المهلب الى صفوفه واجتمع به طويلا وأغراه بولاية خراسان فى الوقت الذى كان فيه الأمويون مشغولون بقضية الوراثة ومن يخلف معاوية الثانى ، فاستجاب المهلب ، وفى طريقه لخراسان مر بالبصرة التى بها معظم قبيلته ورجاله ، وكانت البصرة تتعرض لخطر داهم من جانب الأزارقة، فضحى المهلب بخراسان وتصدى لحرب الأزارقة منــذ هذا التاريخ (٦٥هـ) اســتجابة لرجاء أهل البصرة وبتكليف من عبد الله بن الزبير وأوضحت كيف استمر المهالبة فى صراعهم ضد الأزارقة حتى قتل مصعب ابن الزبير سنة ٧١هـ ، ويبدو أن المهلب كان يدرك أن مكانه هو الجهاد والحرب سواء كان منتميا الى ابن الزبير أو الى الأمويين ، فأعلن المهلب البيعة لعبد الملك بن مروان الذى شكره وأثنى عليه وأقره على ما تحت يده من ولايات وأسند اليه مهمة مواصلة الحرب ضد الأزارقة.

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه علاقة المهالبة بالدولة الأموية منذ سنة ٧١هـ وحتى القضاء على الأزارقة سنة ٧٧هـ ونلاحظ فى هذه المرحلة أن آل المهلب كانوا موضع حسد من جانب عناصر استبد بهــا التعصب القبلى وساءها أن يسيطر الأزد على مجريات الحرب ضــد الأزارقة ، ويحوزوا شرف النصر تلو النصر فى الوقت الذى فشل فيه غيرهم من المضرية فى أن يحلوا محلهم ، وكانت الخلافة الأموية تدرك

أنه لا يستطيع التصدى للأزارقة الا المهالبة ، ورغم ذلك فقد تعرض المهلب للعديد من المضايقات وخاصة من جانب والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان يتهمه باطالة الحرب طمعا فى الخراج الذى يجبيه من الأراضى الخاضعة له •

ورغم الاستفزاز ظل المهلب يدارى الحجاج ، حتى تمكن فى النهاية من تحقيق النصر على الأزارقة ، وكانت ولاية خراسان هى الجائزة التى حصل عليها المهلب لجهوده فى القضاء على خطر الأزارقة •

أما الفصل الرابع : فقد تناولت فيه فترة ولاية المهلب على خراسان حتى وفاته سنة ٨٢هـ وأبرزت عدة نقاط مهمة منها أن الحجاج كان يضمر الحقد على المهلب وأغرمه مبلغا كبيرا من المال ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل المهلب يجاهد فى سبيل نشر الاسلام « فخيل له بسمرقند وأخرى ببخارى وأخرى بطخارستان » كما نجح المهلب فى حفظ التوازن فى علاقته بالحجاج وبالخليفة الأموى فى دمشق فلم يكن فى طبعه الغدر ونكث العهود ويظهر هذا فى موقفه من ثورة ابن الأشعث سنة (٨١هـ) ، كما يظهر بوضوح فى وصيته لأبنائه قبيل وفاته •

أما الفصل الخامس فقد تناولت فيه تاريخ المهالبة منذ تولى قيادة الأسرة يزيد بن المهلب وحتى وفاة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) وأوضحت أن المهالبة فى هذه الفترة قد نالوا حظا وافرا من القوة والنفوذ وخاصة فى خلافة سليمان بن عبد الملك حتى أن بعض الرواة ذكروا أن يزيد بن المهلب كان يجلس مكان الخليفة الأموى فى غيابه ، ولكن هذا الوضع أثار الأحقاد والغيرة ، وكانت أخطر هذه الأحقاد ما جاء من جانب أمراء

البيت الأموى فقد شعر بعضهم بالضآلة أمام نفوذ يزيد وسطوته ، مما عجل بنكبة المهالبة .

أما الفصل السادس : فقد أوضحت فيه ثورة آل المهلب ضد الدولة الأموية وحللت الأسباب التى أثارت البيت الأموى ضد يزيد ، وظروف الحرب الضارية التى خاضها يزيد ضد الأمويين ، ورغم كثرة أنصاره الا أن يزيد بن المهلب كان يرفع السيف هذه المرة فى وجه الدولة صاحبة الحق الشرعى فى الحكم مما أدى الى هزيمته فى موقعة العقر (١٠٢هـ) وقد أبرزت عوامل هزيمة يزيد فى هذه الموقعة . ومطاردة الأمويين لآل المهلب فى كل مكان للقضاء على نفوذهم .

وقد وضحت فى الخاتمة أنه رغم مطاردة الأمويين لآل المهلب فان من بقى منهم ظل على عدائه للدولة الأموية طلبا للثأر ، فقد ثار سليمان بن حبيب بن المهلب سنة ١٢٩هـ ضد الأمويين فى الأهواز كما خرج سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب على الأمويين فى البصرة معقل المهالبة سنة ١٣٢هـ تأييدا للدعوة العباسية .

هذا وفى النهاية أرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه من هذا البحث . ونسأل الله التوفيق فى الفكر والقول والعمل ، انه نعم الموفق .

د. عبد المنعم ساطان

الفصل الأول

أسرة المهالبة منذ اعتنق أبو صفرة الاسلام وحتى وفاة يزيد بن معاوية (٦٤هـ)

تنتسب أسرة المهالبة الى المهلب بن أبى صفرة ، واسم أبى صفرة « ظالم بن سراق »[١] الذى يرجع نسبه الى قبائل الأزد اليمنية[٢] التى هاجرت الى عمان وكانت احدى الهجرات اليمنية التى تفرقت فى شبه الجزيرة العربية فى أعقاب انهيارات سد مأرب ولأسباب أخرى ذكرها الرواة والنسابون ، وكانت الأزد عند تفرقها أضيفت كل طائفة الى شىء يميزها عن غيرها ، فقيل أزد دبا وأزد شنوءة وأزد عمان .. ومرجع الكل الى الأزد المذكورة[٣] . ويروى النسابون العمانيون أن أبا صفرة من أهل مدينة (أدم) من داخلية عمان ، وأن آل بوسعيد فى عمان ينتسبون الى أبى سعيد المهلب بن أبى صفرة[٤] .

---

(١) راجع : ابن قتيبة ، المعارف ، ص٣٩٩ (القاهرة ١٩٦٩) ، أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى ، ج٢ ، ص٧٥ (القاهرة ١٩٧٢) ويروى ابن حزم ان اسمه : سالم بن سراق . انظر : جمهرة انساب العرب ، ص٣٦٧ (القاهرة ١٩٨٢) .

(٢) الأغانى ، ٢ ، ص٧٦ ، ابن حجر ، الاصابة ، ج٤ ، ص١٠٨ (بيروت ١٣٢٨هـ) .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٥٨ .

(٤) راجع : سيف بن حمود البطاشى ، تاريخ المهلب القائد ، ص١٣ ، ص ٢٢ .

ويروى ابن حجر فى الاصابة ما يوحى بأن أبا صفرة كان صحابيا والتقى بالرسول ﷺ وبايعه على الاسلام ، وأن رسول الله هو الذى أطلق عليه هذه التسمية « أبو صفرة » فيقول : « ان أبا صفرة قدم على رسول الله ﷺ على أن يبايعه وعليه حلة صفراء .. فلما رآه .. قال له من أنت . قال : أنا قاطع بن سارق بن ظالم .. فقال له النبى: أنت أبو صفرة . دع عنك سارقا وظالما .. فأعلن أبو صفرة اسلامه ، وقال ان لى ثمانية عشر ذكرا ورزقت بنتا سميتها صفرة ، فقال النبى وأنت أبو صفرة[5] .

ويعترف ابن حجر بأن هذه الرواية فيها اختلاف وأن بعض الروايات تنكر صحابة أبى صفرة ولقائه بالنبى . وفى رواية صاحب «الاستيعاب» أن أبا صفرة كان مسلما على عهد الرسول ﷺ ولم يفد عليه ، ووفد على عمر بن الخطاب[6] .

والروايتان السابقتان تحتاجان الى وقفة لترتيب ما جاء فيهما طبقا لما ورد فى المصادر العمانية التى تحت أيدينا . فاحتمالات لقاء أبى صفرة بالرسول ﷺ فى المدينة ليعلن اسلامه بين يديه ممكنة . اذ تروى المصادر العمانية أن الاسلام قد عرف طريقه الى عمان فى وقت مبكر من ظهور الدعوة الاسلامية فى الحجاز ، وأن أول من اعتنق الاسلام فى عمان هو مازن بن غضوبة من أهل سمائل الذى سافر الى

---

(٥) ابن حجر ، ج٤ ، ص١٠٨ ـ وهناك رواية أخرى فى الأغانى بأن تسميته بأبى صفرة لأنه كان يصفر لحيته . انظر : الأغانى : ج٢ ، ص٧٦.

(٦) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ص١٠٩ (بيروت ١٣٢٨هـ) .

المدينة والتقى بالنبى وأعلن اسلامه أمامه ، وتبعه البعض فى هذا الاتجاه[7] ويروى ابن سعد فى الطبقات أن وفودا من أهل عمان رحلت الى المدينة والتقت بالنبى ﷺ لاعلان اسلامها وكان ذلك قبل الفتح وطلبوا من الرسول أن يرسل معهم من يعلمهم شئون دينهم[8] وكان هذا قبل أن يبعث الرسول برسالته الى حاكمى عمان : عبد وجيفر ابنى الجلندى يدعوهما فيها الى الاسلام[9] . فاذا أضفنا الى هذا أن أبا صفرة كان مقدما فى قومه أهل عمان وكان من أصحاب السيادة والزعامة .. فلما أسلم زاد شرفه وقدمه قومه[10] فاننا نرجح حدوث رحلته الى المدينة ولقائه بالرسول ﷺ كما جاء فى رواية ابن حجر .

أما عن قول صاحب الاستيعاب بأن أبا صفرة لم يلتق بالرسول ﷺ وانما التقى بعمر بن الخطاب ، فهذه الرواية ينقصها الدقة . فانه من المعروف أن أبا صفرة قد التقى بأبى بكر الصديق بعد توليه الخلافة الاسلامية ، والروايات التى بين أيدينا تؤكد أنه فى أعقاب وفاة الرسول ﷺ عاد عمرو بن العاص من عمان — وكان واليا عليها منذ سنة ٨هـ — الى المدينة ، مصحوبا بوفد عمانى يقدر بحوالى سبعين فارسا على رأسهم أحد حاكمى عمان وهو « عبد بن الجلندى » وكان من بين أعضاء هذا الوفد أبو صفرة[11] . وكان هذا الوفد فى حقيقة أمره خفارة لعمرو بن العاص ، خوفا عليه من مخاطر الرحلة من عمان الى المدينة فى ظل الاضطرابات التى شاعت بين القبائل فى أعقاب وفاة

---

(٧) نور الدين السالمى ، تحفة الأعيان ، ج١ ، ص٥٣ وما بعدها .
(٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج٢ ، ص ٨٠ — ٨١ (طبعة دار الشعب) .
(٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٩٣ .
(١٠) العوتبى ، الأنساب ، ج٢ ، ص١٣١ .
(١١) راجع : ابن خلكان ، وفيات ، ج٤ ، ص٣٢٣ ، ٣٢٩ .

الرسول ﷺ فكان عمرو بن العاص فى رحلته « يلقى الناس مرتدين ،وقدم على الناس بالمدينة فطافوا به يسألونه ، فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا الى المدينة »[١٢] . لذلك ما كاد الوفد العمانى يصل الى المدينة حتى التقى بالخليفة أبى بكر ، وتحدث أبو صفرة عن العمانيين فقدم اليه عمرو بن العاص سالما معافى وقال : « هذه أمانة كانت فى أيدينا وفى ذمتنا وديعة لرسول الله ﷺ فقد برئنا منها اليك ، فقال أبو بكر جزاكم الله خيرا »[١٣] .

ويؤكد صاحب الأغانى هذه الرواية العمانية فيقول : « وفد ابن الجلندى فى الأزد ، أزد عمان .. فكان فيمن وفد منهم أبو صفرة .. فدخل الى عمر مع ابن الجلندى »[١٤] . ويبدو أن الوفد العمانى كان قد التقى فى أول الأمر مع عمر بن الخطاب ثم حدث اللقاء بعد ذلك مع الخليفة أبى بكر ، لأن الروايات المتوفرة لا تذكر الا زيارة واحدة لابن الجلندى تلك التى ذكرناها والتى شارك فيها أبو صفرة .

ثم يأتى ذكر أبى صفرة كأحد القواد الذين شاركوا فى الحملات الاسلامية على بلاد فارس فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان عمر قد أصدر تعليماته الى والى عمان فى ذلك الوقت « عثمان بن أبى العاص الثقفى » بمراقبة تحركات الجيش الفارسى فى الخليج ، وأن يتصدى له عند الضرورة ، ويبدو أن أبا صفرة كان على خبرة

---

(١٢) السالمى ، تحفة ، ص ٤٥ .

(١٣) نفسه ، ص٤٣ .

(١٤) الأغانى ، ج٢ ، ص٧٦ .

ودراية كبيرة بشئون البحر والملاحة البحرية وموضع ثقة أهل عمان فى هذا المجال ، فعندما طلب عمر بن الخطاب من والى عمان أن يقطع الخليج بالسفن الى فارس طلب عثمان بن أبى العاص من أهل عمان أن يدلوه على من يشاوره فى أمر هذه الحملة البحرية ، فاقترح عليه العمانيون أن يشاور أبا صفرة[١٥] .

وندب والى عمان المقاتلة فاجتمع له حوالى ثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من أزد عمان ، وكان من بين رجاله أبو صفرة وكان يقود قومه بنى عمران[١٦] وصحب أبو صفرة من أبنائه : النجف والمغيرة وحبيب[١٧] ، وتمكن عثمان بن أبى العاص بهـذه الحملة من هزيمة القوات الفارسية فى الخليج واستولى على جزيرة ابن كاوان ، وطارد الفرس حتى الضفة الشرقية للخليج وأوقع بهم الهزيمة فى كرمان ، وأظهر أبو صفرة وأبناؤه ورجاله شجاعة وبسالة خلال هذه المعارك[١٨] .

واستمر أبو صفرة يشارك فى المعارك التى خاضها المسلمون فى الجبهة الفارسية فى عهد عثمان بن عفان ، فيروى ابن خلدون أن عثمان بن أبى العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين الى فارس فى الفين فسار الى توج — مدينة بفارس — وعلى مجنبتيه جارود العبدى وأبو صفرة والد المهلب ، وكان كسرى أرسل أحد قواده ويدعى «شهرك» فى الجنود

---

(١٥) الأنساب ، ص١٢٣ ، تحفة ، ص٤٦ .

(١٦) بنو عمران من بطون الأزد نسبة الى عمرو بن عدى بن حارثة بن عمرو بن عامر . (انظر : تاريخ اليعقوبى ، ج١ ، ص٢٠٣ — ٢٠٤) .

(١٧) الأنساب : ص١٢٢ .

(١٨) تحفة ، ص٤٦ .

للقائهم ، فالتقوا بتوج وانتهى الأمر بهزيمة الفرس وقتـل قائدهم «شهرك» وطاردهم المسلمون الى سابور وحاصروها حتى خضع أهلها للصلح[١٩] .

وبعد هذا الانتصار نزل أبو صفرة فى توج واتخذها مقرا له مع أهله وجنده ولكنه انتقل بعد ذلك للاقامة فى البصرة فى خلافة عثمان بن عفان عندما رحب به واليها فى ذلك الوقت عبد الله بن عامر[٢٠] وضم فرقة الأزد بقيادة أبي صفرة اليه فى البصرة[٢١] .

ويأتى ذكر المهلب بن أبى صـفرة فى ذلك الوقت لأول مرة فى الحملة التى قادها عبد الرحمن بن سمرة القرشى (ابن عم عبد الله بن عامر والى البصرة) الذى ولاه الخليفة عثمان على سجستان ، وقد شارك فى الحملة على سجستان أبو صفرة وابنه المهلب ويقال أنه كان يومئذ ابن عشرين سنة وبعد معارك عنيفة اسـتولى المسلمون على سجستان ، ثم توجه المسلمون الى كابل وكان المهلب أحد أبطال المعارك حول كابل حيث تمكن من اصابة ملك كابل مما اضطره الى الاستسلام وعقد الصلح مع المسلمين ، واعلان اسلامه[٢٢] . وتتفق هذه الحملة مع ما ذكره الطبرى فى أحداث سنة ٣٥هـ حيث أشار الى حملة شارك

---

(١٩) تاريخ ابن خلدون ، م٢ ، ص٩٨٩ (بيروت ١٩٨٦) ، قارن : تاريخ الطبرى ، ج٣ ، ص١٧٦ — ١٧٧ .

(٢٠) ابن خال الخليفة عثمان ، تولى البصرة وسنه ٢٥ عاما بعد عزل أبى موسى الأشعرى (ابن أعثم ، الفتوحات ، م١ ، ص٣٣٦) .

(٢١) الأنساب ، ص ١٢٥ ، تحفة ، ص٤٨ .

(٢٢) انظر : قدامه بن جعفر ، الخـراج ، ص٣٩٤ ، ابن أعثـم ، الفتوحات م١ ، ص٣٣٩ — ٣٤٠ .

فيها المهلب بن أبى صفرة ، وهو أول ذكر للمهلب فى تاريخ الطبرى[٢٣] ويؤكد تسلسل الأحداث ما رواه العوتبى من أن أبا صفرة غزا مع عبد الرحمن بن سمرة القرشى خراسان بالقوات التى كان قد خرج بها من عمان ، ثم عاد من غزوته هذه فى خلافة على بن أبى طالب[٢٤].

والتقى أبو صفرة بالخليفة على بن أبى طالب فى أعقاب موقعة الجمل فى البصرة ، ودار بينهما حوار يفهم منه أن أبا صفرة كان زعيما لقبائل الأزد فى العراق فى ذلك الوقت ، لأن عليا عندما أظهر شكواه مما قاساه من قومه ، قال له أبو صفرة : « والله يا أمير المؤمنين لو كنت حاضرا ما اختلف عليك منهم سيفان » فطلب على من أبى صفرة أن يأتيه بأحد أبنائه ليعقد له لواء أمان للذين هربوا بعد موقعة الجمل ، ليرجعوا الى بلادهم ورفض النجف بن أبى صفرة أن تسند له هذه المهمة لأنه كان حانقا على نتائج موقعة الجمل ، فوافق المهلب على القيام بهذا الدور ، فعقدت راية الأمان للمهلب ، ورجع معظم الفارين الى البصرة « وتيمن الناس بلواء المهلب »[٢٥] .

ونحن لا نعلم تاريخ وفاة أبو صفرة ، الا أنه توفى بالبصرة فى ولاية عبد الله بن العباس لعلى بن أبى طالب ، ويقال انه توفى فى مسيره الى صفين[٢٦] مما يرجح أن تكون وفاته حوالى سنة ٣٧هـ .

ليست هناك اشارة واضحة فى المصادر التى بين أيدينا عن الشخص

---

(٢٣) تاريخ الطبرى ، ج٤ ، ص٤٠٣ .
(٢٤) الانساب ، ص ١٢٥ .
(٢٥) راجع التفاصيل : الانساب ، ص١٢٥ — ١٢٦ .
(٢٦) أنساب ، ١٢٧ ، تاريخ المهلب ، ٢٥ .

الذى تولى رئاسة أسرة أبى صفرة فى أعقاب وفاته ، ولكن الدلائل توحى أن أهم الشخصيات فى هذه الأسرة آنذاك كانت ابنه المهلب ، فرغم صغر سنه بالمقارنة باخوته[٢٧] الا أنه قد برز فى مجال الحرب والفروسية ، وعلت منزلته — كما أشرنا فى الصفحات السابقة — فكان هو المرشح الأول لتولى زعامة الأسرة بعد وفاة أبيه ، ويرجح هذا ما ترويه المصادر عن مساهمته فى غزو بلاد السند سنة ٤٤هـ ، وخاض خلال ذلك معركة عنيفة ضد جماعة من فرسان الأتراك ، وتمكن ببراعة من أن يقضى عليهم جميعا[٢٨] وكان المهلب خلال هذه الفترة يقود جيشا من أهله الأزد[٢٩] مما يشير الى أنه قد خلف أباه أيضا فى قيادة ما كان تحت يده من جند .

وفى رواية لليعقوبى أن معاوية بن أبى سفيان كتب الى زياد بن أبيه واليه على الكوفة : أن قبلك رجلا من أصحاب رسول الله فوله خراسان وهو الحكم بن عمرو الغفارى ، فولاه زياد خراسان فغزا (هراة) وفتح (الجوزجان) وكان يشاركه فى المعارك المهلب بن أبى صفرة[٣٠] الذى أظهر بأسا ومهارة فى قتال العدو .. واستمر المهلب يجاهد فى هذه الجبهة فى المناطق الوعرة وضد أشد العناصر السكانية قوة وضراوة فى القتال . فعندما غزا الحكم بن عمرو الغفارى جبال الترك سنة ٤٧هـ كان المهلب أحد قواد هذه الحملة ، وفى مرحلة من

---

(٢٧) يروى ابن خلكان أن المهلب من أصاغر ولد أبى صفرة ، ويحدد مولده قبل وفاة النبى بسنتين (وفيات ، ج٥ ، ص٣٥١) .

(٢٨) النويرى ، نهاية الأرب ، ٢٠ ، ص٢٦٦ .

(٢٩) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٥٣١ .

(٣٠) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٢٢ .

المعارك وقع جيش الحكم فى كمين للأتراك فأخذ عليهم الترك الشعاب والطرق ، وعندما تحرج موقف الحكم أسند القيادة الى المهلب بن أبى صفرة ، الذى تمكن عن طريق الحيلة والتدبير من أسر أحد زعمـاء الترك ، وساومه على حياته فى مقابل أن يدلهم على مخرج من الكمين ، وتمكن عن طريقه من النجاة بجيشه وما يحمله من غنائم من الحصار الذى فرضه عليهم الترك[٣١] .

ويبدو أن ما أظهره المهلب بن أبى صفرة من مهارة قتالية وحسن تصرف وحنكة فى المواقف العصيبة ، جعله أحد القادة المشهورين فى حروب الجبهة الشرقية ، فكان الولاة على خراسان يتمسكون بأن يكون فى صحبتهم المهلب بن أبى صفرة ، فعندما تحرك سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦هـ لولاية اقليم خراسان كان من بين قواده المهلب بن أبى صفرة[٣٢] وقد شارك المهلب فى العديد من المعـارك العنيفة فى هذه الفترة وخاصة غزو سمرقند ، ويقال ان سعيد بن عثمان والمهلب قد فقئت عيناهما خلال المعارك[٣٣] .

وفى خلافة يزيد بن معاوية ، ولى على خراسان وسجستان سلم بن زياد سنة ٦١هـ، الذى خرج من الشام طالبا البصرة ليحمل معه أهله وولده ، وليعلم أهل البصرة بولايته بلاد خراسان ، ليخرج معه من أحب الجهاد فخرج معه المهلب بن أبى صفرة وعدد من سـادات البصرة

---

(٣١) راجع : نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص٢٦٧ . قارن : تاريخ الطبرى، ج٥ ، ص٢٥١ الذى يروى هذه الحادثة فى أحداث سنة ٥٠هـ .

(٣٢) تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص ٣٠٥ .

(٣٣) راجع : بلاذرى ، فتوح ، ص٥٠٨ .

وفرسانها[٣٤] وزحفت جيوش سلم بن زياد على بخارى ، وكانت عليها ملكة تدعى «خاتون» ، فلما شعرت بالخطر ، أعلنت رغبتها فى الزواج من ملك الصغد على أن يأتى لتملك بخارى ، والوقوف فى وجه المسلمين، فأقبل ملك الصغد فى مائة وعشرين ألف مقاتل ، وأمام هذا العدد الضخم رأى سلم أن يجعل على طليعة جيشه المهلب بن أبى صفرة ، وبعد معارك عنيفة تمكن المهلب من الحاق الهزيمة بجيش الترك وقتل ملك الصغد فى المعركة[٣٥] .

استمر سلم بن زياد على خراسان ، حتى وفاة يزيد بن معاوية فى صفر سنة ٦٤هـ[٣٦] ، وأراد سلم أن يكتم خبر موته خوف الفتنة بين القبائل ولكن الخبر ذاع فى الناس بعد فترة وكان خليفته معاوية الثانى قد مات هو الآخر ، فدعا سلم الناس الى البيعة على الرضا حتى تستقيم أمور النـــاس على خليفة ، فبايعوه ، ثم نكثـــوا بعد شهرين[٣٧] . فلما تأزمت الأمور أمام سلم بن زياد خرج من خراسان واستخلف عليها المهلب ابن أبى صفرة ، ولكن المهلب كان مدركا لحقيقة الصراع القبلى المحتدم فى خراسان وفى الشام ، فلم يشأ أن يقدم نفسه فى هذا الصراع ، لاسيما أن معظم القبائل وخاصة القيسية لم تكن راضية عن اسناد ولاية خراسان الى المهلب ، فيروى النويرى[٣٨]

---

(٣٤) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٥٢ ، ابن أعثم ، م٣ ، ص١٥٧ — ص ١٥٩ .

(٣٥) تاريخ اليعقوبى ، ص ٢٥٢ .

(٣٦) ابن أعثم ، م٣ ، ص١٥٩ .

(٣٧) تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص ٥٤٥ .

(٣٨) نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص٥١٣ .

أن سلم بن زياد لقى فى طريق عودته من خراسان فى مدينة سرخس سليمان بن مرثد (احد بنى قيس بن ثعلبة) فقال له : اضاقت عليك نزار حتى حعلت على خراسان رجلا من اليمن ، يعنى المهلب ، فما كان من سلم الا ان ولاه بعض أقاليم خراسان وهى مرو الروز والفارياب والطالقان والجوزجان ، وولى أوس بن ثعلبة هراة . وفى نيسابور لقى سـلم بن زياد عبد الله بن خازم السلمى وكان أحد الأشراف الذين صحبوه عند ولايته خراسان(٣٩) فسأله من وليت خراسان؟ فلما أخبره قال : أما وجدت فى مضر رجلا تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل ومزون عمان(٤٠) وطلب منه أن يكتب له عهدا على خراسان ، فكتب له(٤١) .

وتوجه عبد الله بن خازم الى مرو عاصمة خراسان ، وبلغ خبره المهلب الذى رأى أن خراسان مقبلة على فترة حرجة من الصراع القبلى من أجل السيطرة وفرض السيادة عليها ، وحسم المهـلب أمره على ألا يكون طرفا فى هذا الصراع ، ولاسيما وأن النزاع كان على أشده فى الشام حول منصب الخلافة ، ويبدو أن ذكاء المهلب السياسى قد هداه الى التخلى عن منصبه المؤقت كوال لخراسان فاستخلف عليها هرفجة بن الورد (من بنى جشم بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم) وانسحب من خراسان فى سلام ، ويؤكد حسن تصرف المهلب فى هذا الموقف وانسحابه من خراسان ما رواه الطبرى «لما مات يزيد بن معاوية،

(٣٩) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٥٢ .
(٤٠) تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص٥٤٦ .
(٤١) النويرى ، نفسه .

ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بعمالهم ، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة ، وغلب ابن خازم على خراسان ووقعت الحرب[٤٢] .

(٤٢) تاريخ الطبرى ، نفسه .

الفصل الثانى

آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير

عاد المهلب من خراسان سنة ٦٤هـ واستقر فى مقره بالبصرة مع رجاله ، ويبدو من الروايات التى بين أيدنا أن عبد الله بن الزبير كان يعرف قدر المهلب وأهمية أن ينضم رجل مثله الى صفوفه ، ونجح فى أن يجذبه للقائه فى مكة حيث تشاور الرجلان ، فيروى ابن خلكان أنه أثناء خلوة عبد الله بن الزبير بالمهلب يشاوره « فدخل عليه عبد الله بن صفوان ابن أمية بن خلف .. فقال : من هذا الذى شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟ قال : أو ما تعرفه؟ قال : لا ، قال : هذا سيد أهل العراق ، قال: فهو المهلب بن أبى صفرة »[1] ويبدو أن هذه المشاورات قد أسفرت عن اقتناع عبد الله بن الزبير للمهلب بأن يتولى خراسان نائبا عنه .

وقد أثار هذا الأمر جدلا حول أخلاقيات آل المهلب نتيجة تحولهم من ولاء الى ولاء ، فبعد أن كانوا يعملون تحت راية الدولة الأموية تحولوا الى أعدائها من آل الزبير .

وفى اعتقادى أن العلاقة بين المهالبة وثورة عبد الله بن الزبير كانت

---

(١) وفيات ، ج٥ ، ص٣٥١ .

علاقة طبيعية ومنطقية ، فالمهالبة منذ ظهورهم على مسرح الأحداث كانوا يمثلون أسرة محاربة يتسم قادتها بالشجاعة والبطولة فى ميدان الحرب والجهاد وكانت مناطق نشاطهم فى هذه الفترة التى نحن بصددها فى أقاليم العراق وما يليها شرقا ، ولما كانت معظم هذه المناطق قد أصبحت — بصورة أو بأخرى — ضمن نفوذ عبد الله بن الزبير ، فانه من الطبيعى أن يسعى ابن الزبير الى ضم القادة البارزين فى هذه المناطق الى جانبه ، ومنهم آل المهلب . ومما ساعد على ذلك غياب التأثير الأموى ، وانقطاع أجزاء كبيرة من الدولة ، وانشغال الأمويين بقضية الوراثة والبحث عن خليفة بعد معاوية الثانى .

وكانت خراسان فى ذلك الوقت مازالت فى حالة اضطراب ، فأقبل المهلب الى البصرة فى طريقه الى خراسان سنة ٦٥هـ ، وكانت شوكة الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق قد اشتدت على المدينة ، مما اضطر أمير البصرة عبد الله بن الحارث الى محاولة صد الأزارقة عن مدينته ، ودارت المعارك العنيفة بين الجانبين ، ورغم مقتل زعيم الأزارقة سنة ٦٥هـ الا أن الحرب استمرت وكانت الغلبة فيها للأزارقة الذين تمكنوا من الاقتراب من البصرة وأصبحت قريبة المنال « فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم ، فأشار عليهم بالمهلب بن أبى صفرة »[٢] .

وفى هذه الأثناء كان المهلب قد قدم من قبل عبد الله بن الزبير

---

(٢) راجع : ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٠١ ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص٣٢٣ — ٣٢٤ .

حاملا تقليده ولاية خراسان فخرج اليه أشراف أهل البصرة وكلموه فى حرب الأزارقة ويفهم من رواية اليعقوبى المكانة المرموقة التى كان يتمتع بها المهلب فى البصرة وبين أهلها ، فمن بين ما قاله أهل البصرة للمهلب فى هذا الموقف « أنت شيخ الناس وسيف العراق ، وقد ترى ما فيه أهل مصرك من هذه الخوارج المارقة ، والاقامة على منع بلدك والذب عن حريمك أولى من خراسان »[٣] . ويبدو أن المهلب رغب فى أن يكون تصديه للأزارقة بتكليف رسمى من جانب عبد الله بن الزبير، وتشير المصادر الى كتاب وصل الى المهلب من ابن الزبير بتأجيل ولايته على خراسان واسناد مسئولية التصدى للأزارقة له ، وجاء فى هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عند أمير المؤمنين (عبد الله بن الزبير) .. فان عاملى بالبصرة كتب الى كتابا يذكر فيه أن قوما من خوارج الأزارقة المارقة .. قد عزموا على أن يقبلوا الى أرض البصرة لقتل الرجال وأخذ الأموال وهتك الحريم وسبى الذرية ، وقد رأيت أن تكون أنت الذى تلى قتالهم ، لأنك ميمون الطلعة ، مبارك على أهل مصرك ، والأجر فى ذلك أعظم من كل أجر ، فسر رحمك الله راشدا ، فانه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان »[٤] .

ولكن المهلب علق موافقته على حرب الأزارقة والتصدى لهـذه المهمة الخطيرة بشروط ، فقال : « والله ما أسير اليهم الا أن يجعلوا الى ما غلبت عليه ويعطونى من بيت المال ما أقوى به من معى ، فأجابوه

---

(٣) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٤) راجع : تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص٦١٥ — ٦١٦ ، ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٠٢ .

الى ذلك[5] وكتبوا بذلك كتابا وأرسلوه الى عبد الله بن الزبير فأمضاه[6] .

ويفهم مما سبق أن المهلب كان حريصا أن تكون حركته فى اتجاه الأزارقة بموافقة جميع الأطراف ، وفى نفس الوقت أن يؤمن لجيشه حاجته من التمويل خلال المعارك التى كان يتوقع لها أن تستغرق وقتا طويلا ، لذلك كان حرصه أن يكون له ايراد الأراضى التى تقع فى يده ويستردها من الأزارقة .

وتمكن المهلب من حشد جيش يقدر بحوالى اثنى عشر ألفا[7] معظمهم من قومه أزد عمان ، ونظر فى بيت مال البصرة فكان لا يفى بحاجة الجند ، فتفاوض المهلب مع تجار البصرة ، وأوضح لهم أن تجارتهم قد كسدت لانقطاع مواد الأهواز وفارس ، وتوقفت حركة التجارة لسيطرة الأزارقة على هذه المناطق ، وسألهم معاونته بالمال . ووعدهم بأن يمكنهم من تجارتهم ويرد لهم حقوقهم ، فاستجاب تجار البصرة « وأخذ المهلب من المال ما يصلح به عسكره »[8] .

وهكذا تصدى المهلب لمهمة حرب الأزارقة ابتداء من سنة ٦٥هـ وستصبح هذه المهمة أهم مشاغله فيما تلا ذلك من سنين حتى فى الفترات التى سوف تسند فيها هذه المهمة الى غيره — وهى قليلة —

---

(٥) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ٢٦٥ ، نويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص٣٢٤ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج٤ ، ص١٩٦ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص١٩٦ .

(٨) المبرد ، الكامل ، ص٢٢٦ .

فقد كان يتابع الأحداث ، ويسدى النصح ، ويبدى الرأى . وقد دارت بين آل المهلب وبين الأزارقة فى هذه المرحلة معارك ضارية كانت فيها انتصارات وهزائم ، وظهرت فيها بطولات وتضحيات عظيمة من كلا الطرفين ، وسجلتها بالتفصيل معظم المصادر التى بين أيدينا ويهمنا من هذه المعارك ما يلقى الضوء على موضوعنا .

شارك آل المهلب منذ البداية فى جيش المهلب الذى تحرك من البصرة سنة ٦٥هـ فكان على ميمنته ابناه يزيد وحبيب ، وعلى ميسرته ابناه المغيرة وقبيصة ، وعلى جناح ميمنته ابنه عبد الملك ، وعلى جناح ميسرته ابنه المفضل وفى كمينه ابناه زياد ومروان ، وبين يديه ابنه محمد وأخوه المعارك بن أبى صفرة[٩] .

وقبل بداية المعارك ضد الأزارقة ، كان على المهلب أن يوضح أهداف الحرب ودور الرجال وأهمية تضحياتهم ، فوقف بين رجاله ، ووجه كلامه الى بنيه وهو يعنى جميع الجند وقال لهم «يابنى : ان أول غزوكم انصافكم لاخوتكم من المسلمين ، وأن تؤاسوهم بأنفسكم ،.. فباشروا الحرب بأنفسكم ، واستقبلوا حر السيوف بوجوهكم وسنان الرماح بصدوركم ونحوركم ، وأعلموا انها منزلتان : اما شهادة ، واما ظفر »[١٠] .

وكان على المهلب فى بداية المعارك أن يزيح الأزارقة الذين يرابطون على الضفة الشرقية لنهر الفرات . وأن يعيد الجسر الذى يربط الضفتين ، ليتمكن من العبور بجيشه ، فأرسل ابنه المغيرة فى السفن ،

---

(٩) ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٠٤ .

(١٠) نفسه .

ونزل المغيرة على الضفة الشرقية للنهر وحارب الأزارقة فشغلهم وازاحهم عن مواقعهم حتى تمكن المهلب من اعادة عقد الجسر وعبر بكامل جيشه مما اضطر الأزارقة الى الانسحاب ، فنهى أصحابه عن اتباعهم[11] .

وكانت سياسة المهلب العسكرية فى تعامله مع الأزارقه ، تعتمد على التريث ، ودراسة الموقف بدقة ، وعدم التسرع فى الاشتباك أو خوض معارك قد تؤدى الى نتائج عكسية ، فأقام المهلب فى موقعه أربعين يوما يجبى الخراج وينظم قواته ، وآتت سياسته نتائجها فى تقوية جيشه، وتقوية جسور الثقة بينه وبين أهل البصرة وخاصة التجار « فقضى المهلب التجار وأعطى أصحابه ، فأسرع اليه الناس رغبة فى مجاهدة الأزارقة ، ولما فى الغنائم والتجارات »[12] حتى بلغ عدد قواته خلال هذه المدة ما يزيد على عشرين ألفا[13] .

وتبع المهلب الأزارقة فى حذر ، وكانوا قد انسحبوا الى الأهواز ، ورغم ما تحت يده من جيش كثيف الا أنه كان حذرا « ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه ، ووضع المسالح ، وأذكى العيون ، وأقام الأحراس.. وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها ، فكانت الأزارقة اذا أرادوا بيات المهلب ، وجدوا أمرا محكما ، فرجعوا ، فلم يقاتلهم انسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه »[14] . ولم يكن المهلب يكتفى بهذا بل كان يدس الجواسيس الى عسكر الأزارقة فيعرف أخبارهم

---

(١١) المبرد ، ص٢٢٧ .

(١٢) نفسه .

(١٣) الحميرى ، الروض المعطار ، ص٢٤٨ (بيروت ١٩٨٣) .

(١٤) تاريخ الطبرى ، ج٥ ، ص٦١٧ ، الروض ، ص٢٤٨ .

وتحركاتهم[١٥] .

ودارت معارك عنيفة فى منطقة الأهواز وما حولها بين الطرفين ، برز فيها آل المهلب الذين كانوا يخوضون المعارك بين جنودهم ، وقتل خلال هذه الفترة « المعارك بن أبى صفرة » بالقرب من نهر تيرى[١٦]، ويبدو أن الأزارقة أرادوا أن يحسموا الموقف لصالحهم فتجمعوا بكل حشودهم وأسلحتهم ، ليخوضوا معركة فاصلة ضـد المهلب ، وكان تجمعهم فى منطقة سلى وسليرى بالأهواز[١٧] .

ويفهم من وصف الطبرى لجيش الأزارقة آنذاك أنهـم كانوا يتفوقون على جيش المهلب فى السلاح والعتاد « .. وجاءوا وهم أحسن عدة ، وأكرم خيولا ، وأكثر سلاحا من أهل البصرة ، .. فجاءوا وعليهم مغافر تضرب الى صدورهم ، وعليهم دروع يسحبونها وسوق من زرد يشدونها بكلاليب الحديد الى مناطقهم »[١٨] .

والتقى الجيشان فى معركة قاسية ، وكثف الأزارقة هجومهم على جيش المهلب حتى أحدثوا اضطرابا شديدا فى صفوفه ، وكادت الهزيمة أن تحيق بجيش المهلب « وضرب المهلب على رأسه ضربة منكرة فسقط عن فرسه الى الأرض وأحدقت به بنوه فجعلوا يحامون عنه أشـد المحاماة .. »[١٩] واستغل الأزارقة الموقف لبث الرعب فى جيش المهلب،

---

(١٥) المبرد ، ص٢٢٨ .
(١٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج٤ ، ص١٩٧ ، نهاية الأرب ، ج ٢٠ ، ص ٣٢٥ .
(١٧) المبرد ، ص ٢٣٣ .
(١٨) طبرى ، ج٥ ، ص٦١٨ حوادث سنة ٦٥ ، الكامل ، ج٤ ، ص١٩٩ .
(١٩) ابن أعثم ، م٣ ، ص٣٠٦ .

فنادى مناديهم : « ألا ان المهلب قد قتل »[٢٠] فكان لهذا النداء تأثيره على معنويات الجند لولا أن تدارك المهلب الموقف وصعد الى تل قريب من ميدان المعركة « وأخذ ينادى فى شباب الأزد وفتيان اليحمد[٢١] : أعيرونا جماجمكم ساعة من نهار »[٢٢] « فثاب اليه جماعة من قومه أهل عمان »[٢٣] فاجتمع اليه منهم نحو ثلاثة آلاف سماهم الطبرى « سرية عمان »[٢٤] .

وقف المهلب فى هذه السرية بين قومه وقد شعر بالأمان والرضى ، وألقى فيهم كلمة تعبر عن ثقته الكاملة فى هذا العدد الصغير من رجاله الصامدين ، فهم خير من الذين أعطوا ظهورهم للأزارقة عندما احتدم القتال ، وفروا فى اتجاه البصرة ، وقال المهلب « فان الله ربما يكل الجمع الكثير الى أنفسهم فيهزمون ، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمرى ما بكم الآن من قلة ، انى لجماعتكم لراض ، وانكم لأنتم أهل الصبر ، وفرسان أهل المصر ، وما أحب أن أحدا ممن انهزم معكم، فانهم ان كانوا فيكم ما زادوكم الا خبالا »[٢٥] .

---

(٢٠) المبرد ، ص٢٣٥ .

(٢١) اليحمد من الأزد والخليل من بطن منهم يقال له الفراهيد (المبرد، ص ٢٣٦) .

(٢٢) طبرى ، ج٥ ، ص٦٢١ — ويكمل الطبرى الرواية فيقول : فأخذ فتيان منهم يكرون فيقاتلون ثم يرجعون اليه ويقولون : يا ابا علقمة ، القدور تستعار ! .

(٢٣) الروض ، ص٢٤٨ ، المبرد ، ص٢٣٤ .

(٢٤) طبرى ، ج٥ ، ص٦١٨ .

(٢٥) نفسه .

وأراد المهلب أن يعوض قلة جيشه بالنسبة لجيش الأزارقة ، فأمر أصحابه بالاستعداد للهجوم استغلالا لفرصة مطاردة بعض فرسان الأزارقة للمنهزمين من رجاله فى اتجاه البصرة ، وأمرهم ن يجهز كل رجل عشرة أحجار وأن يعد محالى لهذه الحجارة ، لمفاجأة الأزارقة بضربات الحجارة « .. فى وقت الغفلة ، فانها تصد الفارس وتصرع الراجل »[٢٦] . وزحف المهلب برجاله الى الأزارقة ، فما شعروا الا والمهلب يهاجمهم والحجارة تستعرض وجوههم من كل جانب ورجاله تحيط بهم وتعمل فيهم القتل ولم يمض الا وقت قصير حتى قتل زعيمهم «عبيد الله بن الماحوز» وقتلت أعداد كثيرة من الأزارقة واستولى المهلب على معسكرهم وما فيه[٢٧] وقد حقق آل المهلب وقومهم من أهل عمان النصر الحاسم فى هذه المعركة على الأزارقة ، وكان المغيرة بن المهلب أحد الأبطال المشهود لهم خلالها ، فوصفه ابن أعثم بأنه كان « أشد ما تكون الحرب ، أشد ما يكون تبسما »[٢٨] .

وكانت أخبار هزيمة المهلب فى بداية المعركة قد وصلت الى البصرة، وتناقل الناس خبر قتل المهلب ، ونعى بالبصرة ، فنسى الناس رجالهم وأقام أهل كل دار يبكون المهلب لا يسألون عن أحد غيره ، واجتمع بعضهم فى مسجد البصرة يبكون[٢٩] وهم معظم الناس بالنقلة الى البادية خوف السلب والنهب من جانب الأزارقة الذين توقعوا اقتحامهم للمدينة بين لحظة وأخرى ، لذلك ما كاد المهلب يوقع بالأزارقة حتى

---

(٢٦) المبرد ، ص ٢٣٥ :
(٢٧) الروض ، ٢٤٨ .
(٢٨) ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٠٦ ، المبرد ، ص٢٣٥ — ٢٣٧ .
(٢٩) ابن أعثم ، نفسه ، ص٢٠٨ .

بعث الرسل الى البصرة ليبشر أهلها بالنصر ويعلمهم بسلامته ، وكتب كتابا بذلك الى والى البصرة ، فأقام الناس ، وتراجع من كان قد هرب منهم خوف الأزارقة[٣٠] وفى نفس الوقت فقد وضع المهلب كمائن من رجاله وفرســـانه فى طريق عودة الأزارقة الذين كانوا يطاردون فلول الجيش المنهزم فى اتجاه البصرة فأوقعوا بهم وقضوا على معظمهم الا من فر منهم وكان ذلك سنة ٦٦هـ[٣١] .

انصرفت فلول الأزارقة بعد هزيمتهم فى سلى وسلبرى ليعيدوا جمع صفوفهم من جديد ، ويبدو أن الأزارقة بعد الضربة العنيفة التى وجهها لهم المهلب فى هذه المعركة ، قد أدركوا أنهم يحاربون المهلب فى شخصه ، وأنه أخطر أعدائهم ، وأن حسن قيادته وذكائه العســكرى ومقدرته الكبيرة على ادارة المعارك وتحويل الهزيمة الى نصر ، هى أسباب نكبتهم فى معركتهم الأخيرة ، لذلك عمد الأزارقة الى التخلص من المهلب ، ونصبوا كمينا لاغتياله ، وندبوا لهذه المهمة مائة فارس من خير فرسانهم ، ولكــن المهلب كشف أمر الكمين ، وأفشــل ما دبره الأزارقة لقتله[٣٢] ، وانسحب الأزارقة الى كرمان وأصبهان ، وسيطر المهلب على أقليم الأهواز ، وأقام بقية سنة ٦٦هـ يجبى الخراج ووزع الأرزاق على جنده ، وجذب الرخاء والعطاء السخى أعدادا كثيرة من أهل البصرة ، فأثبتهم المهلب فى الديوان ورزقهم حتى بلغت جيوشه ثلاثين ألفا[٣٣] وظل المهــلب فى موضعه بالأهواز مقيمــا على حرب

---

(٣٠) الروض ، ص٢٤٨ ، المبرد ، ص ٢٤٠ .
(٣١) الكامل ، ج٤ ، ص١٩٦ — ٢٠٠ .
(٣٢) راجع التفاصيل : المبرد ، ص٢٣٩ .
(٣٣) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٦٤ — ٢٦٥ .

الأزارقة حتى عزل الحارث بن عبد الله عن ولاية البصرة ووليها مصعب ابن الزبير من قبل أخيه سنة ٦٧هـ(٣٤) .

وعندما أقبل مصعب بعث الى المهلب وهو على حرب الأزارقة رسالة يفهم منها التقدير الذى كان يحظى به آل المهلب بسبب جهودهم فى صد خطر الأزارقة ، وجاء فيها « .. فان الناس لو أعطوا كل انسان قدره لقدمت فى العرب قاطبة غير مدافع .. فان طاعتك وحسن بلائك بلغ بك عندنا كل الذى تحب ، وما نرجو لك به من ثواب الله أجزل وأفضل ، وأنت عندنا الأمين ، ولك بذلك عندنا الكرامة والفضيلة »(٣٥) .

أراد مصعب بن الزبير مواجهة خطر حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى العراق على نفوذ الزبيريين ، لاسيما وأن المختار بعد انتصاره على جيوش الأمويين وانتقامه من المشاركين فى مذبحة كربلاء ، كانت قد خضعت له الكوفة وسوادها الى حلوان والرى وما والاها ، وكانت الجزيرة بأجمعها فى قبضة ابراهيم بن الأشتر ، وكان الأمويون يسيطرون على الشام ومصر أما عبد الله بن الزبير فكان مسيطرا على الحجاز واليمن ، ومصعب واليا على البصرة والمهلب بن أبى صفرة من قبل مصعب قائما على حرب الخوارج . وأدرك مصعب أهمية أن يتخلص من المختار حتى يصفو له العراق وكان يرغب فى أن يحشد لهذا الأمر أعظم قواده ، ومع علمه بخطورة الأزارقة على العراق الا أنه كان حريصا على وجود المهلب الى جانبه فى صراعه مع المختار ، فكتب مصعب كتابا

---

(٣٤) النويرى ، ج٢١ ، ص٤٤ .

(٣٥) ابن أعثم ، م٣ ، ص ٢٢٠ .

الى المهلب يخبره بعزمه على المسير الى الكوفة لحرب المختار ، ورغبته فى أن يكون معه ، وطلب منه أن يولى بعض أولاده حرب الأزارقة ويقبل اليه بالبصرة[٣٦] وأراد مصعب أن يتأكد من موافقة المهلب على الحضور اليه ، فأرسل كتـابه مع أحد قادته الموثوق بهـم ، وهو محمد بن الأشعث بن قيس الكندى[٣٧] ليقنعه بأهمية وجوده بالبصرة فى هذه الفترة الحرجة ، والتقى ابن الأشعث بالمهلب بسابور ، ويبدو أن المهلب كان كارها أن يترك موقعه فى مواجهة الأزارقة[٣٨] ولكـن ابن الأشعث شرح له خطورة الموقف فى العراق ، فاستجاب المهلب .

قدم المهلب الى البصرة « فى تجمل عظيم ومال ورجال وعدد وعدد وجيش كثيف ، ففرح به أهل البصرة »[٣٩] ، ورحب مصعب بقدوم المهلب الى البصرة ، وتأهب لقتال المختار وجعل على كل قبيلة من قبائل العرب رئيسا منها ، فكان المهلب بن أبى صفرة على قبائل الأزد[٤٠] وتولى قيادة ميسرة الجيش[٤١] وأبلى المهلب ورجاله بلاء حسنا فى حربهم ضد المختار[٤٢] وتمكنت قوات مصعب بن الزبير بعد معارك عنيفة من التخلص من المختار الذى قتل أثناء القتال وسيطر مصعب على ما تحت يده من أملاك[٤٣] .

---

(٣٦) النويرى ، ج٢١ ، ص ٤٥ .
(٣٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص٣٠٨ (القاهرة ١٩٣٣) .
(٣٨) طبرى ، ج٦ ، ص٩٤ .
(٣٩) ابن كثير ، نفسه .
(٤٠) ابن أعثم ، م٣ ، ص٣١٨ .
(٤١) ابن خلدون ، م٣ ، ص٦٨ .
(٤٢) راجع التفاصيل : النويرى ، ج٢١ ، ص٤٦ — ٤٨ .
(٤٣) ابن أعثم ، م٣ ، ص٣٢٦ .

وبعد أن تخلص مصعب بن الزبير من خطر المختار ، كتب الى ابراهيم بن الأشتر يدعوه الى طاعته ، فأقبل اليه بالطاعة ، فولى مصعب المهلب بن أبى صفرة الأقاليم التى كان يسيطر عليها ابن الأشتر وهى الموصل والجزيرة واردينية وأذربيجان وعزله عن حرب الأزارقة(٤٤) ويبدو أن هدف مصعب من ذلك حسب رواية ابن خلدون « ليكون بينه وبين عبد الملك »(٤٥) .

ومن المرجح أن عزل المهلب عن حرب الأزارقة وتوليته مكان ابراهيم بن الأشتر لم يكن الهدف الحقيقى منه حماية العراق من الخطر المتوقع من عبد الملك بن مروان كما ذكر ابن خلدون ، ولعل ما رواه ابن خلدون هو ما أعلنه مصعب لتبرير هذا التصرف ، لأن ابراهيم بن الأشتر — بما عرف عنه من حقد على الأمويين — كان يمكنه أن يظل على ما تحت يده ، وأن يتولى الوقوف بين العراق والشام ، والسبب الحقيقى وراء عزل المهلب عن حرب الأزارقة كما تشير المصادر هو أن آل المهلب كانوا موضع حسد من جانب عناصر كثيرة من أهل العراق ، ومن القيسية على وجه التحديد لما حازوه من ثروات طائلة ، وما اتصفوا به من كرم وسخاء كان مضرب الأمثال، وقد أتاح لهم ذلك ، الشرط الذى أخذه المهلب على الزبيريين قبيل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ بأن يجبى أموال الأقاليم التى يسيطر عليها ، والتى يستردها من قبضة الأزارقة — كما سبق أن ذكرنا — بالاضافة الى ما اتصف به المهالبة من بطولات خلال المعارك جعلتهم موضع تقدير واحترام الخاصة والعامة ، ويبدو أن عناصر من الحاقدين على المهلب دست عليه عند مصعب ، وقال قائلهم « ان المهلب رجل يحب مطاولة العدو لما يجبى من البلاد ، ولو عزلته ووليت غيره حرب الأزارقة

---

(٤٤) طبرى ، ٦ ، ص١١٢ ، الكامل ، ج٤ ، ص٢٧٥ .

(٤٥) تاريخ ابن خلدون ، م٣ ، ص٧٢ .

لكان فى ذلك هلاك العدو وتوفير المال على أمير المؤمنين »[٤٦] فاستجاب مصعب لهذا الرأى وأحدث تغييرا فى القيادات فوجه عمر بن عبيد الله ابن معمر التميمى على فارس ، وأسند اليه مهمة حرب الأزارقة وأمر المهلب بالتوجه الى الموصل والجزيرة وأرمينية[٤٧] .

ويبدو أن عمر بن عبيد الله كان مقتنعا بما قيل عن المهلب من اطالة أمد الحرب لجبى الأموال ، وكان يظن أنه يمكنه أن يحسم المعارك معهم ، فلما سار الى خراسان كتب أبياتا جاء فيها :

قل للأزارق الذين تجمعوا ... بسابور انى لست مثل المهلب

يقاتلكم حتى اذا ما رآكم ... أقام فلم يبعد ولم يتقرب

وكان امرؤ يجبى الخراج بكيده ... يخرب أخلاق البلاد لمجلب

فاطمعكم فيه تقارب خطوه ... اليكم وهذا منه شبه التلعب[٤٨]

والعجيب فى الأمر أن الذى رد على ابن معمر ودحض ادعاءه على المهلب فى هذه الأبيات هو عبيدة بن هلال اليشكرى أحد زعماء الأزارقة فقال :

تأن ولا تعجل علينا ابن معمر ... فلست وان أكثرت مثل المهلب

ولا لك فى الحرب المحلب حظة ... ولا لك من يفديك بالأم والأب[٤٩]

وهكذا يتضح ادراك الأزارقة لقوة شكيمة المهلب فى الوقت الذى يطعن فيه ابن معمر فى مقدرته العسكرية . وقد جنى ابن معمر نتائج

---

(٤٦) ابن أعثم ، م٣ ، ص ٢٢٠ .

(٤٧) طبرى ، ج٦ ، ص١١٩ ، النويرى ، ج ٢٠ ، ص٥٢٥ .

(٤٨) ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٢١ .

(٤٩) نفسه ص ٢٢٢ — هكذا وردت الأبيات فى المصدر .

سوء تقديره لقوة الأزارقة والمهالبة .. فلما تحرك بجيشه فى اتجاه سابور ، كانت الأزارقة تراقب حركته وأفسحوا له الطريق حتى أقترب منهم ، وأمسكوا عنه ومكنوه ، حتى اذا كان الليـل اذ الأزارقة قد داهمته من أربع جهات ، على كل جهة منها رئيس من رؤسائهم : عبيدة ابن هلال اليشكرى ، وعمرو القنا العنبرى ، وعطية بن الأسود الحنفى وقطرى بن الفجاءة المازنى ، واحتدم القتال بين الجانبين ، وحمل قطرى على ابن معمر وضربه بعمود على بيضته فهشمها على رأسه فولى هاربا حتى اختلط بأصحابه ، ورفعت الأزارقة المشاعل على رؤوس الجبال وأطراف الرماح فتحول الليل الى نهار واشتد القتال .. وفى هذا الموقف الصعب أدرك ابن معمر سوء تقديره وتسرعه ، فالتفت الى رجل من عبد القيس كان قد شارك فى حروب المهلب ضد الأزارقة ، وسأله كيف كان المهلب يصنع فى مثل هذا الموقف ، فرد عليه الرجل : « أيها الأمير! انه قد ذهب الرأى وبقى الصبر »[٥٠] وانهزم أصحاب ابن معمر هزيمة قاسية ، وأخذتهم سيوف الأزارقة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وزحفوا على معسكرهم فاستباحوه وأخذوا كل ما فيه ثم رجعوا الى مقرهم فى سابور بالغنائم .

والطريف فى الأمر أن عمر بن عبيد الله بن معمر أراد أن ينحى باللائمة على جنده من أهل البصرة ويحملهم مسئولية ما لحق به من هزيمة ، واتهمهم بعدم الاخلاص فى قتال الأزارقة وهم تحت قيادته مثل اخلاصهم للمهلب ، واتهمهم بالتعصب وقال لهم : « انكم تقولون هذا رجل قرشى حجازى ، خيره لغيرنا وشره لنا »[٥١] ، فرد عليه أحد

---

(٥٠) راجع التفاصيل : ابن اعثم ، ص٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٥١) المبرد ، ص ٢٤٣ .

فرسان الأزد قائلا : « أيها الأمير ، ان المهلب كان يقاتل بنـــا قتال الصعلوك ، ويسوسنا سياسة الملوك ، حتى سكنا اليه فى الليل وآنسنا اليه فى النهار »[٥٢] .

واستمرت المعارك بعد ذلك بين الأزارقة وبين ابن معمر واشتبك الجانبان فى معارك غير حاسمة أسهب المؤرخون فى ذكر تفاصيلها[٥٣] ، وكان أهم انجاز للأزارقة فى ذلك الوقت أن تمكنوا من اختراق صفوف جيش ابن معمـــر الى الأهواز مما أغضب مصعب بن الزبير عليه ، واضطر الى الخروج بنفسه لحمـــاية البصرة من الوقوع فى يدهم ، فاتجهوا الى الكوفة ولكن نائب مصعب عليها تمكن من ردهم فعادوا الى الرى واستولوا عليها بعد قتل واليها يزيد بن الحارث ، وأثناء ذلك قتل زعيم الأزارقة الزبير بن الماحوز فولوا عليهم قطرى بن الفجاءة الذى انسحب الى كرمان وجبى الأموال وأعاد تنظيم صفوفه ثم اتجه الى الأهواز وحقق سلسلة من الانتصارات حتى أصبح يهدد البصرة ، وكان عامل البصرة لمصعب بن الزبير سنة ٦٨هـ هو الحارث بن أبى ربيعة فكتب له بخطر الأزارقة على مدينته ونصحه بأن ليس لهم الا المهلب[٥٤] . أدرك مصعب بن الزبير الخطأ الذى وقع فيه عندما أرسل المهلب الى الموصل وعزله عن حرب الأزارقة ، فاستدعى مصعب المهلب من الموصل، وأعاد اليه مهمة حرب الخوارج والمسير اليهم وأعاد الوضع على ما كان عليه قبل ذلك بأن بعث ابراهيم بن الأشتر الى عمله . وجاء المهـــلب حتى قدم البصرة ، وانتخب الناس ، وسار بمن أحب ثم توجه نحو

---

(٥٢) ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٢٤ .
(٥٣) راجع تفاصيل المعارك : الطبرى ، ج٦ ، ص١٢٥ — ١٢٧ .
(٥٤) طبرى ، نفسه ص١٢٧ .

الأزارقة والتقى بهم فى معارك عنيفة فى منطقة «سولاف» « فاقتتلوا بها ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس »(٥٥) .

استمر المهلب فى صراعه ضد الأزارقة حتى سنة ٧١هـ وفيها تحرك الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان الى العراق لضمها الى حظيرة الدولة ، وكان مصعب مقيما وقتها بالبصرة ويبدو أنه فكر فى الاستعانة بالمهلب بن أبى صفرة ليقف بجانبه فى هذا الوقت العصيب ، ويقال انه استدعاه ليستشيره ويستعين به فى تقدير الحالة ، وكان رأى المهلب أن يبقى مع مصعب حتى يمكنهما صد خطر عبد الملك ، ولاسيما أن أهل العراق قد مالوا الى جانبه وكاتبوه(٥٦) . ولكن أهل البصرة كان لهم رأى آخر ، فقد اشترطوا على مصعب أنهم لن يسيروا معه لحرب عبد الملك بن مروان الا اذا اطمأنوا على مصرهم من خطر الأزارقة ، وأن يظل المهلب على حربهم فقد كانت لهم تجارب سابقة فى هذا الشأن وأثبت المهلب انه القائد الوحيد الذى استطاع التصدى للأزارقة ومنع خطرهم عن البصرة ، وقال مصعب للمهلب « وأنا أكره اذا سار عبد الملك الى ألا أسير اليه ، فاكفنى هذا الثغر »(٥٧) .

ورغم أن مصعب بن الزبير قد حاول أن يحشد جيشا قويا لمواجهة عبد الملك واستدعى ابراهيم بن الأشتر من الموصل وجعله على مقدمته فى حربه مع عبد الملك(٥٨) الا أن عبد الملك تمكن من ايقاع الفرقة بين

---

(٥٥) طبرى ، ج٦ ، ص١٢٧ ، نويرى ، ج ٢٠ ، ص٥٢٧ .
(٥٦) النويرى ، ج٢١ ، ص ٥٠ .
(٥٧) نفسه ص١٢١ ، قارن : الأغانى ، ج١٧ ، ص١٢٣ .
(٥٨) ابن خلدون ، م٣ ، ص٧٢ .

أصحاب مصعب وانتهى الأمر بقتله[٥٩] ولما سمع أهل البصرة الذين كانوا يقاتلون الأزارقة دفعا عن مصرهم خبر قتل مصعب ، بايعوا عبد الملك بن مروان ، وبايع قائدهم المهلب بن أبى صفرة[٦٠] فكافأه عبد الملك بأن أقره على ما تحت يده وأسند اليه مهمة حرب الأزارقة وشكره وأثنى عليه ثناء كثيرا[٦١] .

وهكذا انتقل ولاء المهلب بن أبى صفرة من الزبيريين الى الأمويين فى أعقاب مقتل مصعب بن الزبير ، وسيطرة عبد الملك على العراق سنة ٧١هـ ومازال عبد الله بن الزبير يصارع الأمويين من مقره فى مكة ، ويبدو أن المهلب قد أدرك اتجاه رياح التغيير وأن الظفر فى النهاية سيكون للدولة الأموية ، وقد حدث ما توقعه حيث قضى الأمويون على ثورة عبد الله بن الزبير بقتله فى مكة سنة ٧٣هـ[٦٢] .

---

(٥٩) راجع التفاصيل ، طبرى ، ج٦ ، ص١٥٨ — ١٥٩ .
(٦٠) نويرى ، ج٢١ ، ص١٢٧ ، ابن خلدون ، م٣ ، ص ٨٠ .
(٦١) ابن كثير ، البداية ، ج٨ ، ص٣٤٨ .
(٦٢) راجع : طبرى ، ج٦ ، ص١٨٧ وما بعدها .

الفصل الثالث

ولاء آل المهلب للدولة الأموية حتى القضاء على الأزارقة(٧٧هـ)

ذكرنا أن المهلب بعد مبايعته لعبد الملك بن مروان سنة ٧١هـ ، أقره الأخير على اقليم الأهواز وشكره على موقفه وأثنى عليه . وفى سنة ٧٣هـ استعمل عبد الملك على ولاية البصرة « خالد بن عبد الله بن أسيد » الذى بادر الى عزل المهلب عن حرب الأزارقة وأسند اليه خراج الأهواز، ولم يستمع الى نصيحة وجوه أهل البصرة بأن يترك أمر حرب الأزارقة للمهلب لدرايته وخبرته بهم ، ولكن خالدا كان يحقد على المهلب لما وصل اليه من شهرة ، وما يتمتع به من تقدير الخليفة ، وقال لمن حوله من بنى عمومته : « يامعشر قريش .. والله لقد ذهب المهلب بحظ هذا المصر ، وأمير المؤمنين يظن أن أحدا لا يقوم مقام المهلب »[1] وبعث خالد أخاه عبد العزيز بن عبد الله مكان المهلب على حرب الأزارقة[2] على أمل أن يحوز بعض ما ناله آل المهلب من علو المكانة وتقدير الخليفة الأموى . ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال اذ خرج عبد العزيز فى اتجاه فارس وجعل يطوى البلاد حتى وصل مدينة يقال لها جور[3] من أرض

(١) ابن أعثم ، م٣ ، ص٤٠٦ .

(٢) طبرى ، ج٦ ، ص١٦٩ ، نويرى ، ج ٢١ ، ص١٤٧ .

(٣) مدينة بفارس ، بينها وبين شيراز عشرون فرسخا ، راجع معجم البلدان لياقوت ، ج٣ ، ص١٦٤ .

فارس ، فأرسل له قطرى بن الفجاءة زعيم الأزارقة أحد رجاله ويدعى « صالح بن مخراق » فى عدد من الفرسان ، وكمن صالح لجيش عبد العزيز وهو يسير ليلا فى غفلة وعلى غير تعبئة ، وانقض عليه من كل مكان فانهزم عبد العزيز بالناس ، وأسرت زوجته ابنة المنذر ابن الجارو ووضع صالح السيف فى أصحابه فقتل منهم أعدادا كبيرة(٤) وفر عبد العزيز من ميدان المعركة حاملا الخزى والعار لأسر زوجته ، وقد عبر عن هذا الموقف أحد الشعراء فى قصيدة جاء فيها :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيل

وتركت جيشك لا أمير عليهم ... فارجع بعار فى الحياة طويل

ونسيت عرسك اذ تقاد سبية ... تبكى العيون برنة وعويل(٥)

ولما وصل خبر هزيمة عبد العزيز بن عبد الله الى عبد الملك بن مروان غضب لهذا التصرف من جانب والى البصرة بعزله المهلب عن حرب الأزارقة ، ووجه اليه كتابا عنيفا يؤكد مكانة المهلب العالية ، وتقدير الخلافة الأموية لجهوده وحسن بلائه ، وجاء فى كتاب عبد الملك « .. قبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب يجبى الخراج ، وهو الميمون النقيبة ، الحسن السياسة، البصير بالحرب ، المقاسى لها ، ابنها وابن أبنائها ، أنظر أن تنهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ، وقد بعثت الى بشر بالكوفة(٦) أن

---

(٤) طبرى ، ج٦ ، ص١٦٩ .

(٥) نويرى ، ج٢١ ، ص١٤٨ ، ابن أعثم ، م٣ ، ص ٤١١ ، البطاشى ، ص٤٧ .

(٦) هو بشر بن مروان ، أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وكان واليا على الكوفة من قبل أخيه عبد الملك (راجع : طبرى ، ج٦ ، ص١٦٩) .

يمدك بجيش ، فسر معهم ولا تعمل فى عدوك برأى حتى يحضره المهلب والسلام »[٧] .

ويعلق الطبرى على رسالة عبد الملك الى خالد بن عبد الله والى البصرة ، بأن أكثر ما شق على نفس والى البصرة هو اخضاع رأيه فى قتال الأزارقة لرأى وتوجيهات المهلب ابن أبى صفرة[٨] .

وتجمعت جيوش الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، والبصرة بقيادة خالد بن عبد الله ، والتقى الجميع بالأهواز بالمهلب ، وكانت القيادة لوالى البصرة الذى جعل المهلب على ميمنته وداود بن قحذم على ميسرته وزحفوا للقاء الأزارقة ورغم نصيحة عبد الملك لوالى البصرة بأن يستشير المهلب ويأخذ برأيه ، الا أن العصبية القبلية كانت عاملا مؤثرا ومسيطرا على مشاعر القادة فى ذلك الوقت ، فعندما أشار المهلب على خالد بن عبد الله بأن يتحرز على السفن الكثيرة التى كانت بساحل الأهواز ويحتاط حتى لا يحرقها الأزارقة ، لم يصغ اليه ، ولم يمض وقت طويل الا وكان الأزارقة قد أشعلوا فيها النار[٩] ، ورغم هذا فان الأزارقة لم تدخل فى قتال حاسم ضد جيش خالد ، ويبدو أن كثرة عدد ذلك الجيش ووجود المهلب بين صفوفه قد جعلهم يتريثون فى الصدام معه فانسحبوا الى عمق فارس ، فأرسل خالد صاحب ميسرته فى أثرهم وعاد هو الى البصرة وأقام المهلب فى الأهواز[١٠] .

---

(٧) نويرى ، ج٢١ ، ص١٤٩ .
(٨) طبرى ، ج٦ ، ص١٧١ .
(٩) نفسه ، ص١٧٢ .
(١٠) نويرى ، ج٢١ ، ص١٤٩ .

ويفهم من النصوص التاريخية أن عبد الملك بن مروان كان يدرك أن حسم المعارك فى المشرق ضد الأزارقة ليس له الا المهلب ، وكان يثق فى مقدرته العسكرية وخبرته الطويلة فى حرب الأزارقة ، فرغب عبد الملك فى تقوية جيشه ومساندته لانجاز هذه المهمة ، وفى سنة ٧٤هـ أمر عبد الملك أخاه بشرا — وكان قد أضاف اليه ولاية البصرة مع الكوفة — أن يكلف المهلب بمحاربة الأزارقة ، وأن يترك له حرية اختيار من يشاء من أهل البصرة ، وأن يتركه فى الحرب ورأيه ، وحذره من أن يقع فيما وقع فيه خالد بن عبد الله من قبل ، وهدده بالعزل ان فعل ذلك[١١] فاستدعى بشر المهلب ، وقرأ عليه كتاب عبد الملك بن مروان بتكليفه بحرب الأزارقة وأعطاه حرية أن يختار من يشاء من الرجال ، فأسند المهلب مهمة اختيار الجند الى أحد أقاربه وهو جديع بن سعيد الأزدى — خال ابنه يزيد — ، وأمره أن يأتى الديوان فيختار الناس[١٢] .

خرج المهلب من البصرة فى عشرة آلاف رجل من قبيلته الأزد ، وثمانية آلاف من أخلاط القبائل ، ودخل المهلب بجيوشه الأهواز بعد أن رحل عنها الأزارقة الى أرض سابور بفارس لينظموا صفوفهم استعدادا لجولة جديدة من المعارك مع المهلب الذى أقام فى الأهواز عدة أيام ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز فى جموعه[١٣] .

شعر بشر بن مروان بالغضب الشديد على المهلب وملأت نفسه

(١١) ابن أعثم ، م٣ ، ص٤١٨ .
(١٢) طبرى ، ج٦ ، ص١٩٦ .
(١٣) ابن أعثم ، م٣ ، ص٤٢٢ .

الحقد لما حباه به الخليفة من علو المنزلة ، وشق عليه أن امرة المهلب على الحرب جاءت من قبل عبد الملك[١٤] مما يجعله مقيدا لا يستطيع أن يبعث غيره فيتعرض لعقاب الخليفة مما أوغر صدره ، وفكر فى الكيد له بارسال أحد رجاله من الكوفة يشاركه القيادة ويستبد بالأمر، ولا يستمع لمشورته ، فاختار لهذه المهمة عبد الرحمن بن مخنف وكما يروى ابن الأثير ، انفرد بشر بعبد الرحمن وحرضه على المهلب ، وقال له : « خالفه فى أمره ، وأفسد عليه رأيه ، ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا، وتنقصه وقصر به »[١٥] • ولكن يبدو أن بشرا قد أساء الاختيار ، ولم يقع على الرجل المناسب لهذه المهمة ، فاذا كان ما يحرك بشر ضد المهلب هو العصبية القبلية ، فان عبد الرحمن بن مخنف من الأزد ، وضاقه أن يسب بشر المهلب ويطعن فى مقدرته وشرفه ، وعلق عبد الرحمن لخاصته على ما قاله بشر فى حق المهلب « •• فترك أن يوصينى بالجند ، وقتال العدو •• وأقبل يغرينى بابن عمتى كأنى من السفهاء •• »[١٦] • وتظاهر بأنه يستجيب لبشر وهو يضمر فى نفسه التعاون مع المهلب والطاعة له •

وكان المهلب عندما وصل الى رامهرمز والتقى بالأزارقة ، أقام خندقا حول معسكره وتحرز من مفاجآت الأزارقة التى خبرها لطول عهده بهم ، وأقبل جيش الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن مخنف فنزل

---

(١٤) ابن خلدون ، م٣ ، ص٩١ •

(١٥) الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٧ •

(١٦) طبرى ، ج٦ ، ص١٩٦ — ١٩٧ •

بالقرب من معسكره ، ولم تمض عشرة أيام حتى جاء الى رامهرمز خبر وفاة بشر بن مروان فى البصرة سنة ٧٤هـ[١٧] .

عندما بلغ جند البصرة والكوفة خبر موت بشر بن مروان لم يستقروا فى مواقعهم لتحقيق الهدف الذى جاءوا من أجله الى رامهرمز، فانسحب عدد كبير من الجند ، ويبدو من رواية الطبرى أن معظم الذين هربوا من رامهرمز وكرهوا مواصلة القتال هم من أهل الكوفة الذين كانوا تحت امرة عبد الرحمن بن مخنف ، وكان على رأس الهاربين بعض قواده مثل زخر بن قيس واسحاق بن محمد بن الأشعث ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد ، ورغم أن ابن مخنف أرسل فى أثرهم ابنه جعفرا ، وتمكن من رد اسحاق ومحمد الا أنهما تمكنا من الهرب مرة أخرى[١٨] وفشلت محاولات والى البصرة فى اقناع هؤلاء الفارين بالعودة الى ميدان المعركة ، وكانوا مازالوا فى الأهواز ، وأرسل لهم كتابا قرأه عليهم أحد رجاله به الكثير من التهديد والوعيد ان لم يستجيبوا لأوامره بالعودة ، ولكن زخر وأصحابه سخروا منه ولم يلتفتوا اليه[١٩] ، وأرادوا دخول الكوفة ، وكتبوا الى واليها عمرو بن حريث يستأذنونه فى الدخول ، ورغم رفض والى الكوفة لمطلبهم الا أنهم تسللوا الى المدينة ليلا ، وظلوا بها حتى مجىء الحجاج سنة ٧٥هـ .

وبالنظر لما سبق من أحداث يمكننا أن نرجح أن معظم أصحاب

---

(١٧) الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٦ .
(١٨) طبرى ، ج٦ ، ص١٩٧ .
(١٩) الكامل ، ج٤ ، ص٣٦٦ .

المهلب من أهل البصرة ظلوا فى مكانهم فى رامهرمز ، ولم يسارعوا الى الانسحاب ، وأن أصحاب ابن مخنف من أهل الكوفة هم الذين تركوا أماكنهم الى مصرهم ، مما يوحى بأن خروجهم كان عن غير رغبة واقتناع ، فآثروا السلامة بالعودة بعد موت أميرهم ، أو لأنهم رفضوا أن يعملوا تحت قيادة المهلب ، وقد علموا بتحريض بشر لابن مخنف بعدم التعاون معه وصادفوا غير ذلك ، ويفهم هذا المعنى من قول الحجاج بعد ولايته الكوفة مخاطبا هؤلاء الفارين « .. وبلغنى رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم عصاة مخالفين »[٢٠] .

وكيفما كان الأمر فان القوات الباقية فى رامهرمز رغم نقص عددها الا أن القيادة الحكيمة للمهلب والتعاون بينه وبين ابن مخنف قد مكنهما من اجتياز الأزمة المفاجئة بسلام ، ولم يتعرضوا لخطر الأزارقة ، فنحن لا نقرأ عن معارك دارت بين جيش المهلب والأزارقة منذ وفاة بشر بن مروان وحتى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق سنة ٧٥هـ[٢١] .

ومما يؤكد ما ذهبنا اليه من أن معظم جيش المهلب بقى معه فى رامهرمز بعد وفاة بشر بن مروان ، ما يشير اليه ابن أعثم من أن المهلب كان معه فى رامهرمز فى ذلك الوقت عشرة آلاف رجل وهو العدد الذى صحبه عند خروجه من البصرة ووقف المهلب فى أصحابه خطيبا وقال : « ان كنتم انما تقاتلون هذا العدو لبشر بن مروان فقد مات بشر ، وان كنتم انما تقاتلون لله فاثبتوا على ما أنتم عليه ، فان أمير المؤمنين

---

(٢٠) نويرى ، ج٢١ ، ص ٢١٠ .

(٢١) راجع : طبرى ، ج٦ ، ص٢٠٢ ، نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٢ .

حى ، والعراق لابد لها من أمير »[٢٢] .

ومن جانب آخر نلاحظ أن الأزارقة الذين كانوا يراقبون معسكر المهلب قد فرحوا لموت بشر ، وتفرق أعداد كبيرة من جيش العراق ، ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يذكرون أن المهلب مازال فى معظم رجاله من الأزد ، وأنه يمكنه أن يتصدى لهم بقوة اذا فكروا فى استغلال الموقف لصالحهم ، ولما شاور قطرى بن الفجاءة أصحابه فيما يجب عمله فى هذا الموقف ، كان الرأى السائد هو ما قاله عمرو القنا « اترك المهلب ما تركك ، وأرده ما أرادك »[٢٣] ولذلك لم يغامر الأزارقة بالهجوم على المهلب رغم قلة قواته آنذاك . كما أن المهلب كان حريصا على أن يحشد اليه عبد الملك الجيوش فى أسرع وقت ، ليتمكن من التصدى لأى هجوم من جانب الأزارقة ، فكاتبه بذلك ، وحذر من خطورة الحال مع قلة ما تحت قيادته من جند ، وخطر الأزارقة على البصرة[٢٤] .

بين آل المهلب والحجاج (٧٥ ــ ٨٢هـ)

كانت الأحداث التى وقعت عند رامهرمز فى أعقاب وفاة بشر بن مروان والتى سبق شرحها ، من أهم العوامل التى جعلت عبد الملك بن مروان يبحث عن رجل قوى يتولى شئون العراق ويقبض على زمام الأمور بيد من حديد ويعيد هيبة الخلافة بين المتمردين وبين الأزارقة

---

(٢٢) راجع : ابن أعثم ، م٣ ، ص٤٢٢ ــ ٤٢٣ .
(٢٣) ابن أعثم ، م٣ ، ص٤٢٤ .
(٢٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ، ص١٢٦ .

الذين عاثوا فسادا فى أقاليم الدولة الشرقية ، فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق سنة ٧٥هـ كان من أول مهامه ارسال البعوث الى المهلب ، ورد هؤلاء الذين تمردوا على قيادتهم ، وتركوا الحرب دون مبرر ، وجاء فى خطاب الحجاج المشهور الذى ألقاه فى الناس من على منبر الكوفة قوله : « .. قد بلغنى رفضكم المهلب ، واقبالكم على مصركم عصاة مخالفين ، وانى اقسم لكم بالله لا أجد أحدا بعد ثالثة الا ضربت عنقه ، وانهبت داره »(٢٥) .

وأمر الحجاج العرفاء بحشد الرجال الى المهلب وأن يفتح باب الجسر فى طريق فارس ليلا ونهارا ، ويروى الطبرى أنه عبر الجسر فى نهاية المهلة التى حددها الحجاج — وهى ثلاثة أيام — أعداد كبيرة من الناس ، بعد النداء الذى أطلقه الحجاج بأن من ظل فى الكوفة من جند المهلب بعد الموعد فقد أحل دمه « فخرج الناس فازدحموا على الجسر ، وخرجت العرفاء الى المهلب وهو برامهرمز فأخذوا كتبه بالموافاة ، فقال المهلب : قدم العراق اليوم رجل ذكر(٢٦) اليوم قوتل العدو »(٢٧) .

وأتبع الحجاج حملته العنيفة فى الكوفة بحملة مماثلة فى البصرة ، وتوعد العصاة من جند المهلب ، وأمهلهم ثلاثة أيام ، فسارع العسكر للالتحاق بفرقهم وخرج الحجاج بنفسه متوجها الى ميدان الصراع مع الأزارقة ، حتى اقترب من معسكر المهلب فنزل فى «رستقباذ» على

---

(٢٥) طبرى ، ج٦ ، ص٢٠٤ .
(٢٦) أبو هلال العسكرى ، الأوائل ، ج٢ ، ص٦٧ (الرياض ١٩٨١) .
(٢٧) طبرى ، ج٦ ، ص٢٠٧ ، نويرى ، ج٢١ ، ص٢١٢ .

بعد ثمانية عشر فرسخا من رامهرمز وذلك فى شعبان سنة ٧٥هـ ، وقال حين نزل هذا المكان « يا أهل المصرين هذا المكان والله مكانكم ، شهرا بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، حتى يهلك الله عدوكم ، هؤلاء الخوارج المطلين عليكم »[٢٨] وهكذا أعلن الحجاج الحرب التى لا هوادة فيها ضد الأزارقة مهما طال الزمن وحشد لهـا كل ما يستطيع حشده من الرجال ، « فاشتدت ظهور المسلمين ، وساء ذلك الخوارج ، وقد كانوا رجوا أن يكون من الناس فرقة واختلاف »[٢٩] وكتب الحجاج الى المهلب يقره على حرب الأزارقة ، ويعلن ثقته فيه وفى مقدرته على تولى هذه المهمة الخطيرة ، وحاجته اليه عن رغبة واقتناع ، وجاء فى كتابه « .. فان بشر بن مروان وجهك الى الحرب التى للأزارقة وكان مستنكرها لنفسه فيك ، وأنا أريدك لحاجتى اليك ، فأبشر وقر عينا ، واثبت على حرب القوم »[٣٠] . كما اعترف الحجاج للمهلب بشرطه الذى اشترطه على أهل البصرة قبل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ بأن يكون له خراج ما غلب عليه من البلاد « فكانت الأموال تنتقل اليه من أرض فارس فى البدر مكتوب عليها : هذا ما أطعم الله المهلب بن أبى صفرة مما غلب عليـــه من بلاد الله ، يحمله الى قومه من الأزد لا يعترض عليه معترض »[٣١] .

ونلاحظ فى هذه المرحلة من القتال مع الأزارقة أن قيادة الجيوش التى كانت فى رامهرمز لم تكن واحدة — رغم أوامر الحجاج للمهلب

---

(٢٨) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٢ .

(٢٩) طبرى ، ج٦ ، ص ٢١٠ ، ابن خلدون ، م٣ ، ص ٩٥ .

(٣٠) المبرد ، ص٢٦٦ .

(٣١) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٤ .

واقراره على حرب الأزارقة ، فكان أهل البصرة يقودهم المهلب ، وأهل الكوفة يقودهم عبد الرحمن بن مخنف • وفى البداية نجحت جيوش الحجاج فى اجلاء الأزارقة عن رامهرمز « من غير قتال شديد »[٣٢] حسب رواية الطبرى ، ويبدو أن هذه كانت سياسة الأزارقة عندما يشعرون بقوة جيوش الخلافة وخطورة المواجهـــة ، فتراجعوا الى سابور ، ونزلوا مدينة كازرون[٣٣] لتنظيم صفوفهم وتبعهـــم المهلب وعبد الرحمن بن مخنف وكان ذلك فى رمضان سنة ٧٥هـ ، ودارت بين الجانبين معارك عنيفة قتل فيها أعداد كبيرة من الجانبين ، وقتل خلال ذلك عبد الرحمن بن مخنف وصمد المهلب برجاله فى وجه الأزارقة[٣٤]•

ونتيجة لعدم توحد القيادة العسكرية فى هذه المعركة ، فقد اختلفت الروايات حول أسباب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله على يد الأزارقة فأهل البصرة يذكرون رواية مفادها أن المهلب عندما واجه جيوش الأزارقة عند كازرون ، خندق على قواته وتحرز من عدوه وكانت هذه عادته فى التعامل مع الأزارقة فى المعارك السابقة التى سبق الاشارة اليها • وأشار المهلب على ابن مخنف أن يخندق هو الآخر ويتحرز على معسكره ، فرفض أصحاب ابن مخنف مشورة المهلب وكأنهم أنفوا أن يأخذوا أوامرهم منه أو يعملوا تحت قيادته ، وقالوا : « نحن خندقنا سيوفنا »[٣٥] فحذره المهلب من خطر أن يداهمه الأزارقة على غرة

---

(٣٢) طبرى ، ج٦ ، ص ٢١٠ •

(٣٣) كازرون مدينة بفارس بين البحر وشيراز (راجع معجم البلدان لياقوت) •

(٣٤) راجع التفاصيل ، نويرى ، ج٢١ ، ص١٥١ — ١٥٢ •

(٣٥) الكامل ، ج٤ ، ص٣٨٨ •

كان أهل المهلب يفخرون بانتمائهم الى الأزد ، وكانوا فى المواقف فلا يستطيع الثبات لهم ، ولكن صمم أصحابه على رأيهم[٣٦] فلما بادر الأزارقة بالهجوم كان هدفهم فى البداية معسكر المهلب ، فوجدوه قد أخذ الحيطة ولم يستطيعوا اقتحام خندقه لمناعته ، فمالت الأزارقة الى معسكر ابن مخنف واشتبكوا معه فى قتال عنيف ، فلما احتدم القتال « انهزم عنه أصحابه »[٣٧] فحلت الهزيمة بابن مخنف فقتل وقتل معظم الذين ثبتوا معه فى المعركة[٣٨] .

ولكن أهل الكوفة — وهم جيش ابن مخنف — يذكرون رواية أخرى تشير الى أن المهلب قد اصطدم بالأزارقة من بداية الأمر ، ولم يستطع الثبات لهم ، مما اضطره الى الاستنجاد بعبد الرحمن بن مخنف الذى أمده بالخيل والرجال ، فلما رأت الأزارقة ذلك ، أدركت أن معسكر ابن مخنف قد خف رجاله ، فجعلوا بازاء المهلب من يشغله ، وانصرفوا بمعظم قواتهم الى معسكر ابن مخنف « وحملت عليهم الخوارج فقاتلتهم قتالا شديدا ثم ان الناس انكشفوا عنه »[٣٩] فقتل ابن مخنف وقتل معظم أصحابه .

ويبدو أن رواية أهل الكوفة كانت تبريرا لهزيمتهم فى هذه المعركة وقتل قائدهم وأرادوا القاء اللوم فى ذلك على المهلب بن أبى صفرة ، ففى كلا الروايتين — رواية أهل البصرة وأهل الكوفة — تؤكد المصادر أن أهل الكوفة انكشفوا عن ابن مخنف ولم يصمدوا معه فى القتال . ويؤكد هذا الأمر ما سبق أن أشرنا اليه من تسارع أهل الكوفة الى

---

(٣٦) المبرد ، ص٢٦٧ .

(٣٧) طبرى ، ج٦ ، ص٢١٢ .

(٣٨) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٢ .

(٣٩) طبرى ، ج٦ ، ص٢١٢ ، الكامل ، ج٤ ، ص٩٨٩ .

الفرار والعودة الى مصرهم فى أعقاب وفاة بشر بن مروان .

وكيفما كان الأمر ، فان الخليفة عبد الملك بن مروان كان يدرك حقيقة الموقف فى ميدان المعركة ضد الأزارقة ، وأن اللائمة فى هذه الهزيمة تقع على عاتق اهل الكوفة ، فلما وصله خبر مقتل عبد الرحمن ابن مخنف « نعى عبد الرحمن ، وذم أهل الكوفة »(٤٠) .

بعث الحجاج بعتاب بن ورقاء خلفا لابن مخنف لقيادة أهل الكوفة ، وأراد أن يتفادى ما حدث لابن مخنف عندما لم يستمع الى مشورة المهلب ، فكانت أوامر الحجاج الى عتاب واضحة ، فاذا دارت المعارك فعليه أن يستمع الى المهلب ويطيع ، فساءه ذلك ، ولكن لم يجد بدا من الاذعان والطاعة(٤١) ولعبت العصبية القبلية بعقول القادة ، فعتاب كان حاقدا على المهلب ويأنف من العمل تحت قيادته مما أثار الخلافات بين الرجلين وكاد أن يحدث بينهما اشتباك فى مجلس المهلب، ورفع المهلب القضيب ليضرب عتاب لولا أن حجز بينهما المغيرة بن المهلب(٤٢) . وأدرك الحجاج متأخرا خطر وجود قائدين متنافسين فى مواجهة الخوارج ، واستغل فرصة شكوى عتاب من المهلب فأمر عتابا بالعودة الى الكوفة ، فقام المهلب باسناد قيادة ما تحت امرة عتاب الى ابنه حبيب(٤٣) .

وهكذا توحدت قيادة الحرب ضد الأزارقة وأصبحت بيد آل المهلب

---

(٤٠) طبرى ، ج٦ ، ص٢١٣ ، الكامل ، نفسه .

(٤١) الكامل ، ج٤ ، ص ٣٩٠ ، نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٣ .

(٤٢) الكامل ، نفسه .

(٤٣) طبرى ، ج٦ ، ص٢١٣ .

وتمكن المهلب فى هذه المرحلة من الصراع أن يوجه ضربات عنيفة الى الأزارقة فى فارس وكرمان واستمر المهلب يناجزهم ثمانية عشر شهرا دون حسم[٤٤] ولكنه تمكن من تضييق مواردهم باستيلائه على معظم أقليم فارس وحجب ما كانوا يحصلون عليه من هذا الاقليم الغنى[٤٥]، وخلال هذه الفترة كان الحجاج يتابع معارك المهلب وبنيه ضد الأزارقة، ويحثه على الاسراع فى حسمها ، وظن أنه يطيل أمد الحرب حتى يجبى أكبر قدر من الأموال ، فأراد أن يجبى خراج فارس عن طريق عمال من قبله ، ويحرم المهلب من هذا المورد الذى يعتمد عليه فى تمويل عسكره ، ومهما كان هدف الحجاج من هذا التصرف ، فان المصـــادر توضح أن عين الخليفة عبد الملك كانت تراقب ما يجـــرى بين المهلب والحجاج وبدايات التنافس بين الرجلين ، كما أدرك خطورة أن يحرم المهلب من أموال فارس ، وتأثير هذا على صمود عسكره فى مواجهـــة الأزارقة ، فكتب عبد الملك الى الحجاج سنة ٧٧هـ « أما بعد ، فدع بيد المهلب خراج فارس ، فانه لابد للجيش من قوة ، ولصاحب الجيش من معونة »[٤٦] .

ورغم استجابة الحجاج لأوامر الخليفة ، الا أن مشاعر الحجاج بدأت تتغير نحو المهلب ، وتحركت عوامل العصبية القبلية فى نفسه ، وكان يتمنى لو تولى أمر الخوارج رجل من القيسية ، فيحـــوز المال والثروة واحترام الخليفة وتقديره ويوضح هذه المشاعر بجلاء ، ما جاء فى كتاب للحجاج الى المهلب بن أبى صفرة جاء فيه : « فانه بلغنى أنك

---

(٤٤) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٤ .
(٤٥) طبرى ، ج٦ ، ص٣٠١ .
(٤٦) طبرى ، نفسه

أقبلت على جباية الخراج ، وتركت قتال العدو ، وانى وليتك وأنا أرى مكان « عبد الله بن حكيم المجاشعى »[٤٧] « وحسان ابن حصين الحبطى »[٤٨] واخترتك وأنت من أهل عمان ، ثم رجل من الأزد .. »[٤٩] ورد المهلب على الحجاج بأنه يتحين الفرص لتحقيق النصر النهائى على الأزارقة وأنه لن يتم له ذلك الا فى ثلاثة أحوال : موت زعيم الأزارقة قطرى بن الفجاءة ، أو وقوع الفرقة والاختلاف فيما بينهم ، أو محاصرتهم حتى يقتلهم الجوع[٥٠] ولكن الحجاج لم يقتنع بهذه المبررات التى ساقها المهلب وظل يطارده بكتبه ورسله لانهاء الحرب مع الأزارقة .

وفى رواية للطبرى أن الحجاج أرسل فى سنة ٧٧هـ البراء بن قبيصة حاملا كتابا للمهلب يحثه فيه على مجاهدة الأزارقة ، ويحذره من « العلل والأباطيل » ، وأراد المهلب أن يرى رسول الحجاج كيف تكون المعارك مع الأزارقة « فأخرج المهلب بنيه ، كل ابن فى كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم .. وجاء البراء بن قبيصة فوقف على تل قريب حيث يراهم ، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب ، والرجال على الرجال ، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة الى

---

(٤٧) المجاشعى منسوب الى مجاشع بطن من تميم وعامتهم بالبصرة (راجع : محمد بن أبى عثمان الحازمى ، النسب ، ص١١ ، القاهرة ١٩٧٣) .

(٤٨) الحبتى أو الحبطى نسبة الى حبتة بنت مالك بن عوف (راجع : محمد بن أحمد الذهبى ، المشتبه ، ج١ ، ص١٣٩ ، القاهرة ١٩٦٢).

(٤٩) المبرد ، ص٣٦٨ .

(٥٠) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٤ .

انتصاف النهار ، ثم انصرفوا ، فجاء البراء بن قبيصة الى المهلب فقال له : لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط فرجع المهلب بالناس ، حتى اذا كان عند العصر خرج اليهم وبنيه فى كتائبهم ، فقاتلوه كقتالهم فى أول مرة »[٥١] • ونستنتج من هذا البيان العملى ليوم قتال ضد الأزارقة مدى ضراوة المعارك التى كان يخوضها آل المهلب ضدهم وقوة بأس عدوهم وصبرهم على القتال ، وعندما سأل المهلب مبعوث الحجاج عن تعليقه على ما شاهد قال : «رأيت قوما والله ما يعينك عليهم الا الله»[٥٢] فطلب المهلب من البراء أن ينقل على لسانه للحجاج « أن البلاء كل البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره »[٥٣] •

وقد شهدت هذه المرحلة أقوى المعارك بين آل المهلب من جهة وبين الأزارقة من جهة أخرى ، ومن تتبع سير هذه المعارك التى جاءت بتفاصيلها المصادر المختلفة يمكننا أن نلاحظ العبقرية العسكرية والشجاعة النادرة التى كان يتمتع بها المهلب وأسرته ورجاله الذين كانوا يقودون الفرق ، ويخوضون المعارك الجانبية تحت قيادته •

ظل المهلب يطارد الأزارقة ويطردهم من مدينة الى أخرى ومن موقع الى آخر مستعملا معهم أسلوب الهجوم المفاجىء أحيانا ، وتلقى الصدمة والدفاع أحيانا أخرى ، والتريث وعدم الاشتباك ثالثة[٥٤] ،

---

(٥١) طبرى ، ج٦ ، ص٣٠٢ •

(٥٢) المبرد ، ص٢٧١ •

(٥٣) الجاحظ ، البيان ، ج١ ، ص٢٥٣ •

(٥٤) زاجع تفاصيل المعارك : ابن أعثم ، م٣ ، ص٢٣ وما بعدها ، المبرد ، ص٢٧٢ وما بعدها •

وكان المهلب ينصح أبناءه قائلا : « لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبغوا عليكم ، فانهم اذا بغوا نصرتم عليهم »[٥٥] ، وكان ينهاهم عن مهاردتهم اذا ولوا الأدبار منهزمين وقد نهى ابنه المغيرة عن مطاردتهم وهم جرحى « فان الكلب اذا جرحته عقر »[٥٦] .

كان آل المهلب يفخرون بانتمائهم الى الأزد ، وكانوا فى المواقف الخطيرة التى تحتاج الى تكاتف وتضحية يلجأون اليهم لتأكدهم من ولائهم وحسن بلائهم ، فعندما تصدى عطية بن الأسود فى فرسان الأزارقة فى احدى المعارك للمهلب ، أسند المهلب مهمة قتاله الى ابنه يزيد وقال له : « يابنى هذا عطية بن الأسود قد أقبل فى فرسان الأزادقة ، فأخرج اليه فى اخوانك الذين تثق بهم من الاقدام على المكروه » فما كان من يزيد الا أن نادى « فى فرسان الأزد فاجتمعوا اليه من كل أوب »[٥٧] .

واستمرت المعارك فى الفترة من سنة ٧٥هـ الى سنة ٧٧هـ ما يقرب من ثمانية عشر شهرا دون هوادة بين المهلب والأزارقة حتى وقع الاختلاف بين الأزارقة[٥٨] .

فى سنة ٧٧هـ لاحت احدى الفرص التى كان يترقبها المهلب لينهى صراعه الطويل مع الأزارقة ، فقد وقع الاختلاف بين صفوفهم

---

(٥٥) المبرد ، ص٢٧٧ .
(٥٦) ابن اعثم ، م٣ ، ص٢١٣ .
(٥٧) ابن اعثم ، م٤ ، ص ٣٠ .
(٥٨) نويرى ، ج٢١ ، ص ١٥٥ .

وانقسموا على أنفسهم ، ولما بلغ المهلب ما حل بهم من الاختلاف قال لأصحابه : « أبشروا فهذا الذى كنت أرجوه من هؤلاء الخوارج وقد أذن الله فى هلاكهم وبوارهم »(٥٩) .

وتذكر الروايات التاريخية أن سبب الاختلاف أن عاملا لقطرى ابن الفجاءة زعيم الأزارقة على كرمان يدعى المقعطر الضبى ، قتل رجلا ذا بأس من الأزارقة ، فوثبت الأزارقة الى قطرى وطلبوا منه أن يمكنهم من المقعطر ليقتلوه بصاحبهم ، فرفض ذلك ، ودافع عن المقعطر واعترف بالخطأ ولكنه لم يوافق على قتله(٦٠) وصمم كل فريق على موقفه فوقع الاختلاف بينهم ، فولى المعارضون عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا ، ويقال أن قطريا قد بايعه عدد من الأزارقة يقدره الطبرى « نحوا من ربعهم أو خمسهم »(٦١) وانضم الباقون الى عبد ربه الكبير .

وبعض الروايات ترجع سبب الاختلاف بين الأزارقة الى مؤامرة دبرها المهلب بن أبى صفرة ضدهم ، فيقال ان رجلا حدادا من الأزارقة كان يصنع نصالا مسمومة فيرمى بها أصحاب المهلب ، فشكا أصحابه منها ، فوعدهم بالتخلص من هذا الشر ، فوجه المهلب رجلا من أصحابه ومعه كتاب أمره أن يلقيه فى عسكر قطرى فى غفلة منهم ، ففعل ووقع الكتاب فى يد قطرى فاذا فيه : أما بعد فان نصالك وصلت، وقد أنفذت اليك ألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال . فأحضر

---

(٥٩) ابن أعثم ، م٤ ، ص٤١ .
(٦٠) نويرى ، ج٢١ ، ص ١٥٥ .
(٦١) طبرى ، ج٦ ، ص٣٠٣ .

قطرى الصانع وواجهه بالكتاب والدراهم ، فأنكر ما جاء فيه ، فأمر قطرى بقتله ، فأنكر عليه عبد ربه الكبير وبعض أصحابه قتله فوقع الاختلاف بينهم[٦٢] •

ثم دس المهلب بين الأزارقة رجلا نصرانيا ، وأمره أن يسجد لقطرى أمام أصحابه ويقول له انا سجدت لك ، ففعل النصرانى ، فاحتج الأزارقة على قطرى بأن الرجل عبده من دون الله ، وقتلوا النصرانى ، ولم ير قطرى مبررا لقتله فاختلفت الكلمة ووقع الشقاق[٦٣] •

ويبدو أن المهلب عندما علم بأمر الخلاف بين الأزارقة أراد تعميقه بما دبره من المؤامرات السابق ذكرها ، وكيفما كان الأمر فان المهلب كان يرقب الموقف بين فرق الأزارقة المتنازعة بحذر شديد ، ولم يتسرع بالتدخل ضدهم رغم تنازعهم ، وعندما أرسل كتابا الى الحجاج يخبره بما يعانيه الأزارقة من فرقة ونشوب الحرب بين قطرى وعبد ربه الكبير ، كان رد الحجاج بعيدا عما يشغل ذهن المهلب فى ذلك الوقت • فجاء فيه : « فاذا أتاك كتابى هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فتكون مئونتهم عليك أشد »[٦٤] ولكن المهلب كان يدرك أن تدخله فى هذا الوقت قد يكون سببا فى جمع شمل الأزارقة مرة أخرى ، وجاء فى رده على الحجاج ما يوضح سياسته فى هذه المرحلة « لست أرى أن أقاتلهم ماداموا يقتل بعضهم بعضا ، وينقص بعضهم عدد بعض ، فان تموا على ذلك فهو الذى نريد وفيه هلاكهم ،

---

(٦٢) راجع التفاصيل : المبرد ، ص٢٧٧ ، نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٥ .

(٦٣) المبرد ، ص٢٧٨ •

(٦٤) طبرى ، ج٦ ، ص٣٠٣ •

وان اجتمعوا لم يجتمعوا الا وقد رقق بعضهم بعضا ، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة »[٦٥] .

وانتظـــر المهلب حتى انتهت الاشتباكات بين الأزارقة وتفرقت جموعهم ، فريق بزعامة قطرى بن الفجاءة وتقدر حشوده بحوالي عشرة آلاف[٦٦] اتجه بهم قطرى الى مدينة جيرفت احدى مدن كرمان. وفريق بزعامة عبد ربه الكبير وكان يقود سبعة آلاف ، وفريق ثالث بقيادة عبد ربه الصغير فى أربعة آلاف ، وكان كل فريق منهم يرغب فى حرب المهلب ليظهـــر أمام الناس صبره وجهاده وأنه أفضل من غيره[٦٧] .

حاصر المهلب مدينة جيرفت وبها قطرى ورجاله حصــــارا شديدا وساءت الأحوال داخل المدينة المحاصرة حتى اضطر قطرى الى الخروج من الحصار ومواجهة مصيره فى صدام مع جيش المهلب ، ويبدو أن عبد ربه الصغير قد ساءه ما آل اليه حال قطرى فجاء لمساندته بأربعة آلاف من الأزارقة ، فأسند المهلب الى ابنه يزيد مهمة التصدى له وابعاده عن الاشتراك فى الحرب بجانب قطرى ، وتمكن يزيد من أن يفتك بعبد ربه الصغير ويقتله فى معظم أصحابه وظفر بعسكرهم وحوى ما فيه[٦٨] وفى نفس الوقت استولى المهلب على مدينة جيرفت[٦٩] بعد

---

(٦٥) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٦ .

(٦٦) ابن أعثم ، م٤ ، ص ٤٥ .

(٦٧) ابن أعثم ، نفسه ، ص٤٢ .

(٦٨) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٢٧٥ .

(٦٩) المبرد ، ص٢٩٢ — ٢٩٣ .

أن انسحب منها قطرى دون قتال هاربا من الصدام مع المهلب حتى وصل مدينة الرى ومعه عبيدة بن هلال ومن تبعه من الأزارقة ، وعند الرى افترقوا فتوجه قطرى الى ناحية طبرستان[٧٠] ومضى عبيدة بن هلال فى نفر من أصحابه الى مدينة قومس[٧١] •

أقام المهلب فى مدينة جيرفت وأرسل الى الحجاج بتطور المعارك مع الأزارقة وبأنه مقيم على حرب عبد ربه الكبير وطلب منه أن يوجه فى أثر قطرى رجلا جلدا فى جيش[٧٢] للقضاء عليه •

وكانت المعركة الحاسمة فى هذا الصراع مع الأزارقة حول مدينة جيرفت • وقد حشد عبد ربه الكبير لهذه المعركة كل ما يستطيع حشده من الرجال وحمسهم على الانتقام من المهلب الذى استولى على جيرفت واحتوى على غنائم أصحابهم وبنى أعمامهم • وكعادة المهلب فى صراعه الطويل مع الأزارقة ، كان يعرف كيف يتعامل معهم بأسلوب القائد المحنك الذى خبر عدوه وأدرك نواياه ، فما كاد يبلغه خبر قدوم الأزارقة الى جيرفت حتى أمر أصحابه بالرحيل عن المدينة ، وخرج منها كالمنهزم ، وأقبل عبد ربه فى الأزارقة وقد بلغه خروج المهلب فظن أنه قد انهزم بين يديه ودخل برجاله الى الكمين الذى أعده له المهلب وضرب الحصار على نفسه ، فما كاد عبد ربه يدخل جيرفت حتى عاد المهلب بكل حشوده فحصره داخلها ، ووضعه فى نفس الموقف الذى

---

(٧٠) طبرى ، ج٦ ، ص ٣٠٤ •

(٧١) طبرى ، ج٦ ، ص٢١١ ، وقومس كورة كبيرة واسعة ، بين الرى ونيسابور (راجع : مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١١٣٤) •

(٧٢) المبرد ، ص٢٨٨ •

كان فيه قطرى منذ قليل ، وأمر المهلب أصحابه بعدم الاشتباك معهم فى قتال •• واشتد الحصار على الأزارقة حتى اضطروا الى الخروج(٧٣) وعبأ المهلب أصحابه فى كتائب ، وجعل على كل كتيبة رجلا من أولاده، وقال لهم : « انما أقاتل لله ، وأنتم تقاتلون لله وعن أبيكم ، وتذبون عن دين الله •• وليس أحد أولى بحربهم منكم فقاتلوا واصبروا •• واعلموا انكم لا تملكون رقاب الناس ، وانما تملكون طاعتهم »(٧٤) •

دارت معركة عنيفة حول جيرفت اشتد فيها القتل حتى عقرت الخيل وتكسر السلاح وقتل الفرسان ، وعندما أدرك عبد ربه النهاية نزل عن فرسه وكسر جفن سيفه وتبعه أصحابه ، وجمع المهلب أولاده وأبطال قومه وحملوا عليهم وعظم الخطب حتى قال المهلب : ما مر بى يوم مثل هذا(٧٥) وأسفرت المعركة عن هزيمة مدمرة للأزارقة قتل فيها عبد ربه الكبير وقتل معه ما يقرب من أربعة آلاف من أصحابه حتى سالت دماؤهم الى وادى جيرفت فاحمر ماء الوادى(٧٦) ولم ينج منهم الا القليل فولى بعضهم هاربين واستأمن بعضهم المهلب فأمنهم •

ودخل المهلب مدينة جيرفت بعد النصر فاستولى على ما كان فيها من أمتعة الأزارقة وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين(٧٧) وبعد هذه المعركة الفاصلة ، تم مطاردة قطرى بن

---

(٧٣) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٦ •

(٧٤) راجع التفاصيل : ابن أعثم ، م٤ ، ص٤٧ — ٤٨ •

(٧٥) نويرى ، ج٢١ ، ص١٥٧ •

(٧٦) ابن أعثم ، م٤ ، ص ٥٠ •

(٧٧) طبرى ، ج٦ ، ص٣٠٤ •

الفجاءة حيث قتل فى نفس السنة (٧٧هـ) فى شعب من شعاب طبرستان، كما قتل عبيدة بن هلال فى قصر تحصن به بقومس[٧٨] وانتهى بهذا خطر الأزارقة على الدولة الأموية بعد صراع عنيف قاد معظم مراحله آل المهلب .

أرسل المهلب الى الحجاج مبشرا بالنصر على الأزارقة ، فلما دخل البشير مجلس الحجاج ، سأله عما كان عليه حالهم فى حرب الأزارقة، وطلب منه أن يخبره عن آل المهلب ، فقال له : « المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادهم وسخيهم قبيصة ، ولا يستحى الشجاع أن يفر من مدرك ، وعبد الملك سم ناقع ، وحبيب موت زعاف، ومحمد ليث غاب ، وكفاك بالمفضل نجدة ، قال الحجاج : فأيهم كان أنجد ؟ قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها »[٧٩] .

فاستحسن الحجاج ما قاله الرجل فى آل المهلب ، وكتب الى المهلب يشكره على جهوده ، ويعتذر اليه عما بدر منه أثناء المعارك من استبطائه فى حرب الأزارقة[٨٠] وأمره أن يولى كرمان من يثق به من أبنائه ويقدم عليه فى أسرع وقت فى آل بيته وفرسانه ولا يتخلف منهم أحد فلما قدم المهلب على الحجاج أظهر اكرامه وبره ، وقال : « ياأهل

---

(٧٨) راجع التفاصيل : طبرى ، ج٦ ، ص٣٠٩ وما بعدها ، نويرى، ج٢١ ، ص١٥٩ وما بعدها .

(٧٩) المبرد ، ص٢٩٤ ، المسعودى ، مروج ، ص١٨٥ — ١٨٦

(٨٠) ابن أعثم ، م٤ ، ص٥٦ .

العراق أنتم عبيد المهلب »[81] ، وطلب منه أن يعرض عليه فرسانه الذين خاضوا المعارك الطاحنة وأبلوا فى قتال الأزارقة ، وأن يصف له بلاءهم ، وكان كتاب الحجاج يسجلون له ما يقوله المهلب عن رجاله. ثم أقام الحجاج مجلسا خاصا للاحتفال بهذه المناسبة ، وكان ينادى على القواد والفرسان حسب مراتبهم وكان فى مقدمتهم بنو المهلب : المغيرة ويزيد ومدرك وقبيصة وحبيب والمفضل وعبد الملك ومحمد . وقال المهلب للحجاج : انه والله لو تقدمهم أحد فى البلاء لقدمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم . قال الحجاج : صدقت ، وما أنت بأعلم بهم منى ، وان حضرت وغبت انهم أسيوف من سيوف الله[82] . فأخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلا من أصحابه ببلاء حسن الا صدقه بذلك ، فأكرمهم وأحسن العطاء لهم وزاد فيه ثم قال : هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال ، هؤلاء أصحاب الثغور وغيظ الأعداء[83] .

---

(81) نويرى ، ج21 ، ص158 ، — وكانت البصرة يطلق عليها بصرة المهلب لانه حمى المدينة من الخوارج ، وكان أهل الكوفة يقولون لأهل البصرة « يا موالى المهلب » لنفس السبب ولسيطرة آل المهلب ومكانتهم فى البصرة ومن شعر الحسن بن هانىء فى البصرة :

الا كل بصرى يرى انما العلى مكممة سحق لهن جرين
لأزد عمان بالمهلب ثروة اذا افتخر الأقوام ثم تلين

(راجع : الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ، ص122 ، وفيات الاعيان ، ج5 ، ص351) .

(82) المبرد ، ص298 — 299 .

(83) الطبرى ، ج6 ، ص319 ، الكامل ، ج4 ، ص448 .

الفصل الرابع

ولاية المهلب على خراسان حتى وفاته (٨٢هـ)

كانت ولاية خراسان هى الجائزة التى حصل عليها المهلب بن أبى صفرة تقديرا لجهوده وبلائه فى القضاء على الأزارقة ، ففى سنة ٧٨هـ عزل عبد الملك بن مروان ، أمية بن عبد الله بن خالد عن خراسان وسجستان وكان مستقلا فى ولايته عن الحجاج ، وضمهما الى أعمال الحجاج[1] فأسند الحجاج ولاية خراسان الى المهلب . ويبدو أن المهلب كان حريصا على البقاء فى البصرة للراحة بعد العناء الذى بذله فى قتال الأزارقة ، فبعث ابنه حبيبا نائبا عنه الى خراسان ، فوافق الحجاج وقام بوداع حبيب بنفسه ووصله بعشرة آلاف درهم ، وظل حبيب مقيما فى خراسان مدة عشرة أشهر حتى لحق به المهلب فى سنة ٧٩هـ[2].

ويبدو من رواية للطبرى أن الحجاج كان مازال يحمل فى نفسه غيرة وحقدا على ما وصل اليه آل المهلب من الرفعة وعلو الشأن ، فرغم مظاهر الاحتفال والتكريم التى أقامها الحجاج لآل المهلب ورجاله ، الا أنه « أخذ المهلب بألف ألف درهم من خراج الأهواز ، وكان ولاها

---

(١) الكامل ، ج٤ ، ص٤٤٨ .

(٢) النويرى ، ج٢١ ، ص٢٦٨ .

اياه خالد بن عبد الله فقال المهلب لابنه المغيرة : ان خالدا ولانى الأهواز وولاك اصطخر ، وقد أخذنى الحجاج بألف ألف درهم فنصف على ونصف عليك »[٣] . والعجيب فى الأمر أن هذا القائد العظيم رغم فتوحاته وانتصاراته وما حصل عليه من مغانم وما جباه من أموال ، لم يكن يملك مثل هذا المبلغ حتى يسدده للحجاج ، مما يؤكد ما كان يتسم به آل المهلب بوجه عام من سخاء واغداق الأموال على رجالهم ، واضطر المهلب للوفاء بما عليه الى الاقتراض وبلغ به الحال أن باعت امرأته « خيرة القشيرية » حليا لها ومتاعا للوفاء بما عليه[٤] .

ونلاحظ أن المهلب فى فترة ولايته على خراسان(٧٨ — ٨٢هـ) لم يركن الى الدعة والراحة ، واستمر فى نشاطه العسكرى ، وظل مع بنيه يقاتلون فى هذه الجبهة قتالا مستمرا ضد أعداء الاسلام ، ويعملون لاخضاع البلاد لسيطرة الدولة الأموية « فخيل له بسمرقند وأخرى ببخارى ، وأخرى بطخارستان .. وكلما فتح فتحا أخرج من ذلك الخمس فوجه به الى الحجاج ، وقسم باقى الفىء فى أصحابه ، وفرح أهل خراسان بولاية المهلب عليهم فرحا شديدا »[٥] لما حازوه من شرف الجهاد فى سبيل الله ، وما حصلوا عليه من الغنائم .

كانت حركة المهلب بن أبى صفرة للغزو والجهاد فى سنة ٨٠هـ عندما تحرك برجاله شرقا ، وقطع نهر بلخ ، ونزل على كش (وهى قرية من قرى جرجان)[٦] وهناك وفد عليه ابن عم ملك الختل[٧] الذى

---

(٣) الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٢٠ .
(٤) نفسه ص٣٢١ .
(٥) ابن أعثم ، م٤ ، ص٥٨ .
(٦) النويرى ، ج٢١ ، ص٢٠١ .
(٧) الختل : كورة فيما وراء النهر (راجع معجم البلدان لياقوت) .

كان على خلاف مع الملك وحرض المهلب على فتح هذه البلاد ، فوجه معه المهلب ابنه يزيد ، وتم حصار الختل والاستيلاء عليها ، وانسحب يزيد عنها بعد أن صالح أهلها على فدية حملت اليه[8] كما وجه المهلب ابنه حبيبا الى بخارى فى جيش كبير يقدر بحوالى أربعين ألف رجل ، وأوقع الهزائم بأهل بخارى ، وأخضعهم ورجع حبيب الى أبيه فى مدينة كش[9] وكان المهلب قد اتخذها مقرا له لتحريك قواته فى الفتوحات المختلفة ، وأقام المهلب بكش يضبط الأمور ويجبى الخراج ولم يستجب الى الآراء المتهورة التى كان أصحابها يطمعون فى الغزو من أجل المزيد من الأموال، فعندما قيل له : لو تقدمت الى الصغد وما وراء ذلك ، قال: ليت حظى من هذه الغزوة سـلامة هذه الجند وعودتهـم الى مرو سالمين »[10] .

وتظهر براعة المهلب السياسية فى احتفاظه بعلاقات قوية مع الخليفة الأموى فى دمشق ، والتعامل بحذر مع الحجاج الذى كان يضمر فى نفسه الكثير ضد آل المهلب لذلك كانت سياسة المهلب فى خراسان تتسـم بالحذر من العناصر القبلية المناوئة من عرب الشمال على وجه التحديد، ورغم انتمائه الى عرب الجنوب فلم يترك لنفسه العنان فى الانسياق وراء التعصب القبلى ، بل كان يسعى الى اقامة توازن فى العلاقات بين القبائل حتى لا تثور فتنة تؤدى الى افشال مشاريعه الحربية ، وفى نفس الوقت كان على حذر من المضرية ولا يأمن جانبهم ، ويبدو

---

(٨) الكامل ، ج٤ ، ص٤٥٣ .

(٩) النويرى ، نفسه .

(١٠) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٢٦ .

هذا عندما أقبل عليه جماعة من مضر وهو بكش ، فقبض عليهم وحبسهم ، ورغم أن المصادر لم تذكر سببا لهذا التصرف ، فمن المحتمل أنهم كانوا يمثلون خطرا على وحدة جيشه فى ذلك الوقت وهو يواجه العدو فى حروب متصلة ، فقد ثارت بعض المنازعات بين بطون من بنى تميم طلبا للثأر[11] •وعندما زال الخطر ، وعاد المهلب الى مرو عاصمة خراسان ، لم يجد سببا لبقاء هؤلاء فى حبسه فأطلق سراحهم[12]، ويؤيد هذا الاحتمال ، أن الحجاج كتب الى المهلب بشأن هؤلاء المضرية: « ان كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت باطلاقهم ، وان كنت أصبت باطلاقهم فقد ظلمتهم اذ حبستهم ، فكتب المهلب : خفتهم فحبستهم ، فلما أمنت خليتهم »[13] •

ولعل عدم توتر العلاقات بين المهلب والحجاج بصورة سافرة ترجع الى أن المهلب بالاضافة الى حسن سياسته ، لم يكن فى طبعه الغدر ونكث العهود ، فى الوقت الذى عرف فيه عن الحجاج القسوة والعنف فى علاقته مع الخاصة والعامة على السواء ، وحادثة ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فى سنة ٨١هـ تلقى الضوء على بعض جوانب شخصية الرجلين : أعنى المهلب والحجاج •

فثورة ابن الأشعث فى جوهرها تمرد من جانب قائدها ورجاله ضد قسوة الحجاج وصلفه وغروره ، ورغبة فى الانتقام منه ، وبدأت بتدخل الحجاج فى الحرب التى يقودها ابن الأشعث ضد رتبيل أحد ملوك

---

(١١) راجع التفاصيل : النويرى ، ج٢١ ، ص٢٢٩ — ٢٣٢ •
(١٢) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٢٦ •
(١٣) الكامل ، ج٤ ، ص٢٥٤ •

الترك والذى سبق له أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش المسلمين ، وكان رأى ابن الأشعث — بعد أن حقق بعض الانتصارات على رتبيل واستولى على أجزاء من بلاده — عدم التوغل فى بلاد الترك خوفا من الوقوع فى الكمائن « حتى يعرفوا طرقها ويجبوا خراجها »(١٤) ولكن الحجاج اتبع مع ابن الأشعث نفس الطريقة التى سبق له أن نفذها مع المهلب فى حربه ضد الأزارقة ، فطارد ابن الأشعث بسلسلة من الكتب العنيفة التى تتهمه بالجبن وحب الموادعة والرغبة فى جباية الأموال ، وأمره بمواصلة القتال ضد الترك أو التخلى عن الامارة لأخيه اسحق(١٥) ، وكان رد فعل ابن الأشعث حاسما اذ أعلن الثورة على الحجاج والدولة الأموية واستجاب له الأجناد ومعظمهم من أهل البصرة والكوفة نكاية فى الحجاج لبغضهم له وخوفهم من سطوته(١٦) .

وفى هذا الوقت حاول ابن الأشعث أن يستميل اليه المهلب بن أبى صفرة والى خراسان ، ولكن المهلب رفض الاستجابة للفتنة ، وكتب الى ابن الأشعث كتابا يوضح سياسته ومنهجه فى التعامل مع السلطة الشرعية ، وجاء فى كتابه « أما بعد ، فانك وضعت رجلك يا ابن محمد فى غرز طويل الغى على أمة محمد ﷺ . الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها .. »(١٧) . وواضح من النص السابق التزام المهلب بالوفاء

---

(١٤) راجع تفاصيل ثورة ابن الأشعث وحروبه مع الترك : النويرى، ج٢١ ، ص٢٣٣ وما بعدها .

(١٥) النويرى ، نفسه ، ص ٢٣٥ .

(١٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص٢٨٧ .

(١٧) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٣٨ .

وعدم نكث العهود ، والبعد عن الفتنة وما تجر اليه من ويلات وسفك دماء المسلمين ، ولا يكتفى المهلب بنصح ابن الأشعث ، بل يرسل كتابا الى الحجاج يحذره من خطر الفتنة الداهمة التى ستهب عليه ، وينصحه أن يتخذ موقف الدفاع ضد ثورة ابن الأشعث ولا يخـرج للقائه ، وحلل له طبيعة أهل العراق فى الحرب فقد خبرهم طويلا وقال فى كتابه للحجاج « ان لأهل العراق شره فى أول مخرجهم ، وصبابة الى أبنائهم ونسائهم ، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا الى أهليهم ويشـموا أولادهم ، ثم واقفهم عندها ، فان الله ناصرك عليهم ان شاء الله »(١٨) .

لم يأخذ الحجاج بنصيحة المهلب وتجهز للقاء جيش ابن الأشعث الزاحف على العراق وخرج الحجاج من البصرة حتى وصل تستر (مدينة بخوزستان) وهناك اصطدم مع ابن الأشعث فى معركة عنيفة فى يوم الأضحى سنة ٨١هـ ، فانهزم أصحاب الحجاج وقتل منهم جمع كثير ، واضطر الحجاج الى الانسحاب بفلوله الى البصرة ، وابن الأشعث يطارده(١٩) . وهنا أدرك الحجاج قيمة النصيحة التى أسداها له المهلب، فلما وصل البصرة ، طلب كتاب المهلب وأعاد قراءته وتفحص فحواه ثم قال لمن حوله : « لله أبوه ، أى صاحب حرب هو . أشار علينا بالرأى ولكنا لم نقبل »(٢٠) .

ونكب المهلب فى رجب سنة ٨٢هـ بوفاة ابنه المغيرة ، فحزن عليه حزنا شديدا ، وكان المغيرة نائبا عن أبيه فى مرو ، فلما بلغه خبر وفاته وهو مقيم بكش أرسل ابنه يزيد الى مرو ليتولى مراسم دفن أخيه ،

---

(١٨) نفسه ، ص٣٣٩ ، ابن خلدون ، م٣ ، ص١٠٧ .
(١٩) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٣٦ .
(٢٠) الدلبر.. ، ج٦ ، ص ٣٤٠ .

وجعل يوصيه بما يفعل ودموعه تنحدر على لحيته[٢١] ، وبعد أن نظم الأوضاع فى كش ، تركها متوجها الى مرو وفى طريقه أصيب المهلب بمرض شعر معه بدنو أجله ، فجمع أولاده ، وأعلن استخلافه لابنه يزيد عليهم ، وأمرهم بعدم مخالفته ، فقال له ابنـــه المفضل : لو لم تقدمه لقدمناه[٢٢] ، وأحضر سهاما فحزمت ، وقال : اتكسرونها مجتمعة؟ قالوا : لا ، قال : افتكسرونها متفرقة ؟ قالوا : نعـــم ، قال : فهكذا الجماعة .

وأوصى المهلب أبناءه قبيل وفاته وصية أوردتها معظم مصادر التاريخ ولأهمية هذه الوصية كأحد الوثائق التى تكشف عن شخصية زعيم آل المهلب ، والسياسة التى اعتنقها فى حياته والتى يرغب من أبنائه أن يسلكوا سبيلها من بعده ، فقد أوردنا نص الطبرى لهـــذه الوصية : « فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فان صلة الرحم تنسىء فى الأجل ، وتثرى المال ، وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة ، فان القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة ، فتحابوا وتواصلوا ، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، .. وعليكم بالطاعة والجماعة ، وليكن فعالكم أفضل من قولكـــم ، .. واتقوا الجـــواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه ، وآثروا الجود على البخل ، عليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة ، فانها

---

(٢١) نفســه ص٣٥١ . ورثا الشعراء المغيرة ومنهـــم ابو امامة زياد الأعجم الذى جاء فى قصيدته :

تبكى المغيرة خيلنا ورماحنـــا والباكيـــات برنة وتصـــايح
كان المهلب بالمغـــيرة كالذى ألقـــى الدلاء الى قليب المائح

(راجع : وفيات ، ج٥ ، ص٣٥٤) .

(٢٢) الكامل ، ج٤ ، ص ٤٧٥ .

أنفع فى الحرب من الشجاعة . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن، وأدب الصالحين ، واياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد »[٢٣] وتوفى المهلب بمرو الروز ، ودفن فيها ، وصلى عليه ابنه حبيب وكانت وفاته فى ذى الحجة سنة ٨٢هـ[٢٤] .

---

(٢٣) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٥٤ .

(٢٤) ابن أعثم ، م٤ ، ص٨٩ ، فرثاه الشاعر نهار بن توسعة التميمى بقصيدة مطلعها :

ألا ذهب الغـزو المقـرب للغنى ومات النـدى والجود بعد المهلب

الفصل الخامس

آل المهلب تحت قيادة يزيد بن المهلب حتى وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)

بعد وفاة المهلب ، كتب ابنه يزيد الى الحجــاج يعلمه بوفاته ، فأقره الحجاج على خراسان مكان أبيه[١] ، وكان المهلب قد قال لمن حضره من أولاده قبيل وفاته — كما ذكرنا — قد استخلفت عليكم يزيد فلا تخالفوه ، واعتقد أن هذا الاستخلاف لا يعنــى استخلافا على خراسان فقط ، فهذا يتوقف على موافقة الخليفة والحجاج ، بل هو استخلاف على آل المهلب ، فأصبح يزيد بهذا الاستخلاف كبير آل المهلب وشيخهم ، ولذلك لا أميل الى الأخذ برواية للطبرى — بدون سند على غير عادته — يقول فيها : « ويقال : انه قال عند موته ووصيته (يقصد المهلب) : لو كان الأمر الى لوليت سيد ولدى حبيبا »[٢] . ولنا أن نتساءل : هل كان المهلب فى استخلافه لابنه يزيد مكرها ؟ واذا لم يكن الأمر اليه فى هذا الاختيار . فلمن كان اذن؟ ، ولاشك أن هذه الرواية — ان صحت — تتناقض مع وصية المهلب لأبنائه عن أهمية الجماعة

---

(١) راجع : الطبرى ، ج٦ ، ص٣٥٥ .

(٢) طبرى ، نفسه .

وعدم الاختلاف وأن يطيعوا يزيد ، فما كان المهلب يبذر بذور الشقاق بين أبنائه قبيل وفاته بمثل هذه العبارة .

وفى سنة ٨٣هـ كان الحجاج بن يوسف الثقفى مازال على حرب ابن الأشعث ، وكانت أهم المعارك التى خاضها فى هذه السنة معركة « دير الجماجم » المشهورة بالقرب من الكوفة ، والتى انكسر فيها جيش ابن الأشعث وتشتت شمل أصحابه[٣] ويهمنا من أمر هذه المعركة أن فريقا من جيش ابن الأشعث بعد أن انتهى بهم المطاف الى سجستان ، طلبوا أن يتركوا سجستان ويتوجهوا بجيوشهم الى خراسان وعليها يزيد بن المهلب ليستولوا عليها وينتقووا بها . ولكن ابن الأشعث حذرهم من هذه المغامرة ، وقال لهم : « على خراسان يزيد بن المهلب ، وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه ، ولو دخلناها لوقعنا بين أهل خراسان وأهل الشام »[٤] ، ولكن أصحابه لم يستجيبوا له. وكانوا يأملون أنهم اذا هاجموا خراسان سيجدون تأييدا من أهلها ، وأنها خير مستقر لهم بعيدا عن تهديد الحجاج والدولة الأموية[٥] .

استجاب ابن الأشعث لرغبة أصحابه بعد الحاح ، وسار بهم فى اتجاه خراسان وعندما وصلوا مدينة «هراة» حدث اضطراب فى صفوف قواته أظهر اختلافها فيما بينها ، انسحب جزء من جيشه بقيادة عبيد الله ابن عبد الرحمن فى ألفين ، مما أغضب ابن الأشعث ، فترك قيـــادة

راجع التفاصيل : النويرى ، ج٢١ ، ص٢٣٩ وما بعدها .
(٤) الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٧٠ .
(٥) النويرى ، ج٢١ ، ص ٢٥٠ .

أصحابه وانسحب بخاصته من المعركة[٦] .

تجمع من بقى من جيش ابن الأشعث فى هراة بقيادة عبد الرحمن ابن العباس بن ربيعة فى حوالى عشرين ألفا ، وبلغ خبر هذا الحشد يزيد بن المهلب فى خراسان ، وما فعلوه بنائبه على هراة « الرقاد بن عبيد » عندما أراد التصدى لهم فقتلوه . فأرسل يزيد تحذيرا الى عبد الرحمن جاء فيه : « قد كان لك فى البلاد متسع ، ومن هو أكل منى أحدا وأهون شوكة ، فارتحل الى بلد ليس لى فيه سلطان ، فانى أكره قتالك ، وان أحببت أن أمدك بمال لسفرك أعنتك به »[٧] .

وتعلل عبد الرحمن بن العباس ليزيد بأنه ما نزل هذه البلاد لحرب أو مقام ، ولكن للراحة ثم الرحيل ، وكان يزيد يراقب ما يجرى فى هراة بحذر كعادة آل المهلب فى حروبهم ، فبلغه أن عبد الرحمن أقبل على جباية ما تحت يده ، فأدرك يزيد أن من أراد أن يريح ثم يرحل لم يجب الخراج[٨] فتحرك يزيد برجاله فى اتجاه هراة وولى على الحرب أخاه المفضل ، واستخلف على مرو عاصمة خراسان خاله جديع ابن يزيد ، وعندما وصل هراة ، بعث تحذيرا ثانيا الى عبد الرحمن بن

---

(٦) الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٧٠ . ويقال ان ابن الأشعث عند انسحابه عاد للاقامة مع رتبيل ملك الترك الذى كان قد توطدت بينهما الصداقة منذ رفض ابن الاشعث الدخول فى حرب ضد رتبيل ، ووجه جيوشه لقتال الحجاج (راجع : الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٧٠ — ٣٧١ ، المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص٢٨٧) .

(٧) النويرى ، ج٢١ ، ص٢٥١ .

(٨) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٧١ .

العباس جاء فيه : انك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وزيادة ، فاخرج عنى فانى أكره قتالك[9] . ولكن عبد الرحمن بن العباس لم يستجب لنداء المسالمة ، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم الى نفسه ، فاخبروا يزيد بذلك ، فعلم أنه لا فائدة من العتاب ، وأمر أخاه المفضل بالاشتباك ، ودارت معركة قصيرة انهزم فيها جيش عبد الرحمن وفر معظم أصحابه من ميدان المعركة ، فأمر يزيد بن المهلب بالكف عنهم وعدم مطاردتهم ، ووقع منهم عدد كبير فى الأسر ، وكان من بين الأسرى محمد بن سعد بن أبى وقاص الذى قال ليزيد عندما مثل بين يديه : أسألك بدعوة أبى لأبيك ، فخلى يزيد سبيله[10] .

ويروى أن حبيب بن المهلب حرض أخاه يزيد على عدم ارسال الأسرى فى هذه المعركة من أهل اليمن ، لأن الحجاج سيضرب أعناقهم، وقال له : بأى وجه تنظر الى اليمانية اذا فعلت ذلك ، ورغم أن يزيد كان يعلم خطورة التعرض للحجاج فى مثل هذا الأمر ، الا أنه خضع لرأى حبيب وأنف أن يرد أسرى اليمانية الى الحجاج ، وأما المضرية فشدهم فى الحديد ووجههم الى الحجاج[11] .

ويروى الطبرى أن الحجاج عندما جاءه الأسرى من عند يزيد بن المهلب ، حاكمهم فى مجلسه ، واحدا بعد الآخر ، وكان بعد المحاكمة يأمر

---

(٩) النويرى ، ج٢١ ، ص٢٥٢ .

(١٠) وكان سعد بن وقاص عندما بلغه حسن بلاء المهلب فى معارك خراسان فى عهد معاوية قال : اللهم لا تره ذلا أبدا ، واكثر ماله وولده ؛ ويقال أن ما نال المهلب من خير كان بسبب هذه الدعوة . (راجع : المعارف، ص٢٤٢ ، الأنساب ، ص١٢٨ — ١٢٩) .

(١١) النويرى ، ج٢١ ، ص٢٥٣ .

بضرب عنق الأسير « ثم أتى بعبد الله بن عامر ، فلما قدم بين يديه قال : لا رأت عيناك ياحجاج الجنة ان أفلت ابن المهلب بما صنع . قال: وما صنع ؟ قال :

لأنه كاس فى اطلاق أسـرته　　وقاد نحوك فى أغلالهـا مضرا
وقى بقومك ورد الموت أسرته　　وكان قومك أدنى عنـده خطرا

فأطرق الحجاج مليا ، ووقرت فى قلبه ، قال : ما أنت وذاك . وأمر بضرب عنقه ، ولم تزل فى نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خراسان وحبسه »(١٢) .

عزل يزيد بن المهلب عن خراسـان سنة ٨٥هـ

بعد أن فرغ الحجاج من ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٥هـ رتب للقضاء على يزيد بن المهلب وعزله عن خراسان ، وأصبح لا هم له الا يزيد وأهل بيته ، « وقد كان الحجاج أذل أهل العراق كلهم الا يزيد وأهل بيته ومن معهم من أهل المصرين بخراسان ، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمن بن محمد بالعراق غير يزيد بن المهلب»(١٣) . ويبدو أن الحجاج كان يرى فى يزيد بن المهلب ، أكبر منافس له لدى الخلافة الأموية فى دمشق ، وأنه يمكنه أن يحل مكانه ويتولى ما تحت يده من أعمال ، وحسب رواية ابن خلكان أن « الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشى منه أن يترتب مكانه ، فكان يقصده بالمكروه كل وقت كى لا يثب عليه »(١٤) . ولما كان أهم ما يشغل بال

---

(١٢) الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٨٠ ، قارن : النويرى ، ج٢١ ، ص٢٥٤ .
(١٣) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٩٧ .
(١٤) وفيات ، ج٦ ، ص٢٧٨ .

الحجاج فى ذلك الوقت هو يزيد بن المهلب ، فكان الحجاج كثيرا ما يسأل المنجمين عمن يكون مكانه ، فيقولون رجل اسمه يزيد ، فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد بن المهلب[١٥].

ورغم ما كان يتمتع به الحجاج من مكانة لدى الخليفة عبد الملك بن مروان الذى أطلق يده فى شئون العراق والمشرق ، الا أنه كان يشعر بأن يزيد بن المهلب يحظى باحترام وتقدير البلاط الأموى فى دمشق ، وأراد الحجاج أن يختبر مكانته لدى عبد الملك فطلب منه أن يعفيه مما تحت يده من ولايات ، فأدرك عبد الملك هدفه ، ولم يجبه الى طلبه[١٦].

وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج كان يبحث عن سبب لاقناع عبد الملك بن مروان بعزل يزيد عن خراسان ، فأكثر من الكتابة الى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ويتهمهم بأنهم زبيرية[١٧] ، ومع علم عبد الملك بأن هذه تهمة لا قيمة لها الآن بعــدما حققه آل المهلب من انتصارات ضد أعداء الدولة الأموية ، الا أن الحــاح الحجاج دفع الخليفة الى أن يكتب اليه : « قد أكثرت فى يزيد وآل المهلب ، فسم لى رجلا يصلح لخراسان ، فسمى له مجاعة بن سعد السعدى ، فكتب اليه عبد الملك : ان رأيك الذى دعاك الى استفساد آل المهلب ، هو الذى دعاك الى اختيار مجاعة ، فانظر لى رجلا حازما ماضيا لأمرك ، فسمى له قتيبة بن مسلم ، فكتب اليه : وله »[١٨] .

---

(١٥) نفسه ، ص٢٨٨ ــ ٢٨٩ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٢٦٤ .
(١٦) وفيات ، ج٦ ، ص٢٨٩ .
(١٧) الطبرى ، ج٦ ، ص ٣٩٥ .
(١٨) وفيات ، ج٦ ، ص٢٨٩ .

ونستنتج مما سبق أن عبد الملك كان يدرك حقيقة مشاعر الحجاج وحقده على يزيد وآل المهلب ، وأنه كان يرمي الى «استفساد آل المهلب» ورغم ذلك فقد استجاب الخليفة لطلب الحجاج وعزل يزيد عن خراسان بقتيبة بن مسلم فى ربيع الآخر سنة ٨٥هـ ، وكان هذا فى اعتقادى منعا لاحتمالات الفتنة والصدام بين يزيد والحجاج مما ينذر بسوء العاقبة، وكان الحجاج حريصا فى نفس الوقت أن يتم عزل يزيد عن خراسان وقدومه الى العراق بطريقة لا تثير مشاعره ، ولا تدفعه الى الثـــورة والتمرد ، فلم يكتب الحجاج اليه بالعزل بل كتب له باستخلاف أخيه المفضل وأن يقبل عليه بالعراق[١٩] .

وكان يزيد بن المهلب على علم بمـــا يدبره له الحجاج ، ورغم نصيحة مستشاريه له بأن يتريث فى الخروج الى العراق على أمل أن عبد الملك يعدل عن عزله ، الا أن يزيد كان محافظا على التقاليد التى بثها فيه والده المهلب ، وقال لمن حوله : « انا أهل بيت بورك لنا فى الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف »[٢٠] .

وهناك رواية تشير الى أن يزيد فى أواخر أيامه فى خراسان تغير على بنى عمه وغيرهم من أجناد خراسان ، فجعل يبغضهم ولا ينفذ فيهم وصية أبيه حتى أبغضه أهل خراسان وكاتبوا الحجاج[٢١] ، وأنا لا أميل الى هذه الرواية لتبرير عزل يزيد ، فالحجاج ما كان يشغله علاقة يزيد بأهل خراسان ورأيهم فيه ، بقدر ما كان يشغله أمور أخرى

---

(١٩) الطبرى ، نفسه .
(٢٠) نفسه .
(٢١) ابن أعثم ، م٤ ، ص ١٤٥ وما بعدها .

سبق ايضاحها ، ومما يدحض هذه الرواية ، ما ترويه معظم المصادر أنه عندما خرج يزيد من خراسان الى العراق صادف ترحيبا كبيرا فى كل مكان « فلم يمر ببلد الا فرشوا له الرياحين »(٢٢) .

حبس الحجاج يزيد بن المهلب ومعظم أفراد أسرته وأخذهم بسوء العذاب وأغرمهم ستة ملايين درهم(٢٣) ، وظل يزيد فى سجن الحجاج حتى سنة ٩٠هـ حيث تمكن يزيد ومن معه من أخوته من الهرب من قبضة الحجاج . وتفاصيل ذلك أن الحجاج كان قد خرج لحرب الأكراد الذين غلبوا على فارس ، وأخرج معه يزيد ابن المهلب وأخوته ، فجعلهم فى عسكره ، وجعل عليهم مثل الخندق ووضع عليهم حرسا من أهل الشام(٢٤) ، وواضح من هذا التصرف من جانب الحجاج ، أنه كان يدرك خطر يزيد وآل المهلب رغم وجودهم فى قبضته ، فكان يخشى هربهم ولم يأمن أن يتركهم ، ويخرج للغزو مما قد يعطى بعض العناصر المؤيدة لآل المهلب من التدخل لاطلاق سراحهم .

وكان يزيد رغم وجوده فى الحبس على اتصال بأسرته فى البصرة، فبعث الى أخيه مروان بن المهلب يخبره بعزمه على الهرب ، ويطلب منه أن يعد خيولا قوية تحسبا لوقت قد يستطيع فيه الافلات من قبضة الحجاج(٢٥) ، ويفهم من الروايات التى بين أيدينا أن الحجاج فى هذه الفترة كان قد كف عن تعذيبهم ، واكتفى بأن يستصفى أملاكهم ويخرج منهم ما يستطيع اخراجه من أموال ، تسديدا لما أخذهم به ،

---

(٢٢) الطبرى ، ج٦ ، ص٣٩٦ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٢٦٥ .
(٢٣) وفيات ، ج٦ ، ص٢٨٨ — ٢٨٩ .
(٢٤) طبرى ، ج٦ ، ص٤٨٨ ، نويرى ، ج٢١ ، ص٣١٦ .
(٢٥) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٥٥ .

وكان قد غرمهم ستة ملايين درهم ـ كما ذكرنا ـ ويبدو أن يزيد كان يعامل معاملة خاصة آنذاك ، وكان ينفق عن سـعة وهو فى الحبس « وكان له طباخ وموائد منصوبة حتى استمال قلوب الحراس »(٢٦)، ولذلك كان يمكن ليزيد أن يدبر خدعة يهرب بها من حبسه ، وأمر يزيد أن يصنع طعام كثير للحرس وأن يقدم لهم الشراب ، واستغل انشغالهم فتنكر فى ثياب طباخه ، ووضع لحية بيضاء وتسلل من بين الحراس ليلا وتبعه أخواه المفضل وعبد الملك(٢٧) ، ومن المحتمل أن يزيد قد دبر هذا الأمر بالاتفاق مع بعض الحراس الذين غمرهم بكرمه ، وأعطى السجان ألف درهم لتسهيل مهمة هربه(٢٨) .

لما وصل الخبر الى الحجاج بهرب يزيد وأخوته ظن أنهم سيتجهون الى خراسان ويجمعون أنصارهم ، ويثيرون فتنة ضده ، فأرسل الى واليها قتيبة بن مسلم يأمره بالحذر والاحتياط ، فكان الحجاج يخشى أن يحدث له من يزيد مثل ما فعل ابن الأشعث(٢٩) ولكن يزيد ومن معه من آل المهلب ، كانوا يفكرون فى اتجاه آخر ، حيث أخذوا طريقهم الى فلسطين ونزلوا على أحد أفراد قبيلتهم وهو يزيد بن عبد الرحمن الأزدى الذى توسط ليزيد بن المهلب لدى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان مقيما فى فلسطين فى ذلك الوقت ، فأمنهم سليمان ، وكان لابد أن يحصل لهـم على الأمان من أخيه الخليفة الوليـد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) فكتب اليه بذلك ، وطلب منه الخليفة أن يمثـل يزيد

---

(٢٦) النويرى ، ج٢١ ، ص٣١٧ .

(٢٧) طبرى ، ج٦ ، ص٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٢٨) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٥٤ .

(٢٩) طبرى ، ج٦ ، ص٤٤٩ .

كان من المتوقع أن يحظى آل المهلب وعلى رأسهم يزيد بمكانة مرموقة ونفوذ قوى فى ظل حكم الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩هـ) الذى ما كاد يتولى الخلافة حتى دعا يزيد بن المهلب ، فخلع عليه وأكرمه ، وعزم على أن يوليه العراقين البصرة والكوفة[٣٥]، وفى نفس الوقت فان أعداء آل المهلب وخاصة هؤلاء الذين كانوا من أنصار الحجاج (توفى ٩٥هـ) ، وشاركوا فى بعض ما أصاب آل المهلب على يديه ، أصبحوا يتوجسون من العهد الجديد ، وتوقعوا أن يتم تصفية الحسابات القديمة، وأن يتعرضوا للانتقام ، فيذكر الرواة ، أن الخلافة عندما آلت الى سليمان بن عبد الملك ، خشى قتيبة بن مسلم أن يعيد سليمان يزيد بن المهلب على خراسان ويعزله عنها بما يعنيه هذا من تعرضه وأنصاره لانتقام يزيد ، فكتب قتيبة الى سليمان ثلاثة كتب أرسلها مع رسول له : الكتاب الأول يهنئه فيه بالخلافة ، ويذكر حسن بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنه له عليه مثل هذا ان لم يعزله عن خراسان • فقتيبة فى كتابه الأول للخليفة يربط بين ولائه له وبين بقائه واليا على خراسان محتميا فيها مما يتوقعه من أخطار •

والكتاب الثانى يذكر فيه الخليفة بفتوحه وجهاده ومكانته وعظم قدره ، « ويذم آل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه » أما الكتاب الثالث فكان فيه خلع للخليفة واعلان التمرد[٣٦]•

وبعث قتيبة الكتب مع أحد خاصته ، وأوصاه أن يدفع الكتاب الأول الى الخليفة ، فان كان يزيد بن المهلب حاضرا مجلسه فقرأه ثم

---

(٣٥) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٨٧ •

(٣٦) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٣٩ •

وأخوته أولا بين يديه قبل الأمان ، ولما خاف عليهم سليمان من بطش الخليفة أخبره أنه سيحضر بهم بنفسه ، ولكن الوليد أقسم أنه لن يعطيهم الأمان الا اذا حضروا بدونه ومقيدين(٣٠) .

ويظهر أن سليمان بن عبد الملك لم ينس بلاء آل المهلب وشهرتهم التى ذاعت فى الآفاق وجهادهم وولاءهم للدولة الأموية ، لذلك أرسل مع يزيد وأخوته ابنه أيوب ، وطلب منه أن يدخل الى الوليد وهو مقيد فى قيد واحد مع يزيد بن المهلب ، ووجه سليمان كتابا الى أخيه يبرر فيه أسباب اجارته ليزيد جاء فيه : « انما أجرت يزيد بن المهلب لأنه وأباه وأخوته من صنائعنا قديما وحديثا ، فلم أجر الا سامعا مطيعا حسن البلاء والأثر فى الاسلام هو وأبوه وأهل بيته »(٣١) وتعهد سليمان بأن يرد عن يزيد كل ما يطلب منه من أموال(٣٢) . فأمن الوليد بن عبد الملك يزيد وآل المهلب ، وكتب الى الحجاج بأن يكف يده عنهم ، فاستجاب الحجاج لأوامر الخليفة ، وكان أبو عيينه بن المهلب عند الحجاج وقد أغرمه مالا فكف عنه ، وأطلق سراح حبيب بن المهلب وكان يعذب بالبصرة(٣٣) . وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك وكانت الصداقة بين الرجلين تزداد قوة مع الوقت وكان سليمان يحسن استقباله ، ويقدم له الهدايا القيمة ويقبلها منه ، ولم يتمكن الوشاة من افساد هذه العلاقة القوية بينهما(٣٤) وظل الحال على ذلك حتى وفاة الوليد بن عبد الملك وتولى سليمان الخلافة سنة ٩٦هـ .

---

(٣٠) طبرى ، ج٦ ، ص٤٥١ .
(٣١) ابن أعثم ، م٤ ، ص١٥٨ .
(٣٢) طبرى ، ج٦ ، ص٤٥٢ .
(٣٣) وفيات ، ج٦ ، ص٢٩٤ .
(٣٤) راجع التفاصيل ، الطبرى ، ج٦ ، ص٤٥٢ — ٤٥٣ .

ألقاه اليه فادفع اليه بالكتاب الثانى ، فإن قرأه ودفعه الى يزيد فادفع اليه الثالث . وان قرأ الأول ولم يدفعه الى يزيد فاحبس الكتابين عنه ، وقد حدث ما توقعه قتيبة أولا ، فكلما أعطاه مبعوثه كتابا دفعه الخليفة الى يزيد حتى أعطاه الكتاب الثالث فقرأ سليمان : « لئن لم تقـرنى على ما كنت عليه وتؤمننى لأخلعنك ولأملأنها عليك خيـلا ورجلا »(٣٧) .

ولم ينتظر قتيبة بن مسلم رد الخليفة على كتبه ، واستشار أخوته فأشاروا عليه بخلع سليمان بن عبد الملك ، فلما فعل ذلك ودعا القبائل التى فى خراسان الى مساندته فى خلع سليمان لم يستجيبوا له ، فوقف قتيبة فيهم خطيبا فأساء اليهم وسبهم ، فغضبت القبائل واجتمعوا على خلع قتيبة والتصدى له « وكان أول من تكلم فى ذلك الأزد »(٣٨) وكان طبيعيا أن ينقم الأزد على قتيبـة لموقفه من آل المهلب وعدائه لهم(٣٩) وانتهى الأمر بثورة القبائل فى خراسان على قتيبة ، وقتـل هو ومعظم أفراد أسرته وبعث برأسه الى سليمان بن عبد الملك(٤٠) .

وكان سليمان بن عبد الملك بعد توليه الخلافة مباشرة قد أسند ولاية العراق الى يزيد بن المهلب ، وأمره أن يبسط العذاب على آل أبى عقيل وهم أهل الحجاج ، فأسند يزيد مهمة الانتقام منهم ومصادرة أملاكهم الى أخيه عبد الملك(٤١) ، ورغم أن سليمان قد أطلق يد يزيد

---

(٣٧) راجع التفاصيل : الطبرى ، ج٦ ، ص٥٠٧ — ٥١١ .

(٣٨) النويرى ، ج٢١ ، ص ٣٤٠ .

(٣٩) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٤٠) راجع التفاصيل : تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢١ ، ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .

(٤١) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٤٣ .

ابن المهلب فى أهل الحجاج وخواصه ، الا أن يزيد لم يكن يحمل طباع الحجاج ولا أخلاقه ، وكان أقرب الى العفو منه الى الانتقام والتشفى ويبدو هذا واضحا فى موقفه من يزيد بن أبى مسلم خليفة الحجاج وأحد خواصه ، وكان سليمان قد قبض عليه ، وقال ليزيد بن المهلب « خذه اليك فعذبه بألوان العذاب ، حتى تستخرج منه الأموال . فقال: يا أمير المؤمنين أنا أعلم به ، لا والله ما عنده مال ، ولا كان ممن يحوى المال . وكان يزيد بن المهلب يعرف له جميل فعله به ، فولاه سليمان الصائفة »[٤٢] .

وفى سنة ٩٧هـ استعمل سليمان بن عبد الملك ، يزيد بن المهلب على خراسان مضافة الى العراق ، فولى يزيد أخاه زيادا على عمان[٤٣] . وكان سبب ذلك أن سليمان لما ولى يزيد العراق فوض اليه الحرب والخراج والصلاة بها ، أى أصبحت ولاية عامة ليزيد ، فنظر يزيد لأحوال العراق وما آلت اليه بعد أن خربها الحجاج ، وضيق على أهلها ، واستنزف أموالهم ، ورأى أنه ان تشدد فى جمع الخراج وعذب الناس لجمعه منهم صار عندهم مثل الحجاج ، لذلك احتال يزيد لدى الخليفة حتى يسند اليه ولاية خراسان وكأن الأمر قد جاء عفوا ودون تدبير أو رغبة من يزيد[٤٤] .

ويبدو من رواية لابن الأثير أن يزيد انشغل عن الخراج ، فأسندت مهمة الخراج الى صالح بن عبد الرحمن ، فضيق صالح على يزيد فى

---

(٤٢) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .
(٤٣) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٠٦ ، الأنساب ، ج٢ ، ص١٤٨ .
(٤٤) راجع التفاصيل : الكامل ، ج ٥ ، ص٢٣ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٣٤٤ وما بعدها .

الأموال حتى ضجر من البقاء فى العراق وكان يزيد مشهورا بالكرم الى حد الاسراف فقد اتخذ ألف خوان يطعم الناس عليها فمنعها صالح •• واشترى يزيد متاعا وكتب صكا بثمنه الى صالح فلم يقبله، وادعى بأن الخراج لا يقوم بما يريد يزيد[45] •

وأعتقد أن الفرصة فى العراق كانت ضيقة أمام طموحات يزيد وآل المهلب ، فمجال الغزو والفتوحات ليست متاحة ليزيد فى العراق ، ولعل هذا هو ما دفع يزيد الى السعى لتولى خراسان تلك الولاية التى خبرها آل المهلب طويلا فى صراعهم مع الأزارقة وفى كفاحهم فى سبيل الجهاد ونشر الاسلام ، فالغزو هو الطريق الذى اعتاده آل المهلب للحصول على الشهرة والمغانم ، فعن طريق الغزو يمكن تحقيق المكانة العالية المرموقة ، والثروات الطائلة التى تخضع الرقاب وتجمع الأنصار •

خرج يزيد بن المهلب الى خراسان سنة ٩٧هـ وكان قد سبقه اليها ابنه مخلد واستخلف الولاة على مدن العراق ، وجعل أخاه مروان على حوائجه وشئونه بالبصرة[46] لما للبصرة من مكانة خاصة لدى آل المهلب •

وسعى يزيد بن المهلب بعد توليه خراسان فى تحقيق ما كان يصبوا اليه من أهداف ، فبعد أن قبض على زمام الأمور فى ولايته ، قضى على الثورات فى جرجان وطبرستان ، وحارب الترك والديلم ، واستعان بآل المهلب فى الادارة والقيادة ، فولى ابنه مخلدا سمرقند ، وولى مدرك بن المهلب بلخ ومحمد بن المهلب مرو وعظم أمر يزيد

---

(٤٥) الكامل ، ج٥ ، ص٢٣ — ٢٤ •
(٤٦) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٤٦ •

بخراسان[٤٧] .

تمكن يزيد بن المهلب خلال فترة ولايته على خراسان لسليمان بن عبد الملك من القيام بسلسلة من الفتوحات والغزوات الناجحة ، وكتب الى سليمان بأمر هذه الفتوحات وأن الله قد فتح لأمير المؤمنين جرجان وطبرستان ومناطق قد استعصت على المسلمين من قبل[٤٨] « وقد صار فى يدى ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار الى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة عشرون ألف ألف . فقال له كاتبه : « لا تفعل أيها الأمير ان هذا يبقى عليك مخلدا بكتابك فى دواوينهم ، فان ولى بعده وال فتحامل عليك لم يرض منك الا بأضعافه ، وان عدل عليك أخذك بما فى كتابك »[٤٩] ونصحه أن يكتب الى سليمان بن عبد الملك بالفتح وعندما يلتقى به يخبره بشأن الأموال حتى لا تؤخذ عليه ، فأبى يزيد وأمضى الكتاب وتصادف أن مات سليمان بن عبد الملك وتولى عمر بن عبد العزيز عندما وصل كتاب يزيد[٥٠] .

كتب عمر بن عبد العزيز الى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويقبل اليه ، فاستخلف يزيد مخلدا ابنه وقدم من خراسان وفى الطريق قبض على يزيد وقيد وأرسل به الى عمر بن عبد العزيز الذى حبسه بحصن حلب[٥١] وطالبه بالأموال التى كتب بها الى سليمان ،

---

(٤٧) راجع تفاصيل غزوات آل المهلب فى هذه الفترة : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص٤١٢ وما بعدها ، تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٢٩٦ .

(٤٨) راجع : البلاذرى ، ص٤١٢ — ٤١٥ .

(٤٩) الحميرى ، الروض ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٥٠) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٥٢ .

(٥١) الكامل ، ج٥ ، ص٤٨ — ٤٩ ، النويرى ، ج٢١ ، ٣٦٣ .

فأنكر يزيد هذه الأموال وبرر ذلك بقوله : « كنت من سليمان بالمكان الذى رأيت ، وانما كتبت الى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به »[٥٢] ، وطلب يزيد من عبد العزيز أن يطلق سراحه ليجمع له الأموال التى يطالبه بها فرفض عمر ذلك وقال: أتأخذها من الناس مرة أخرى[٥٣] .

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز كان غاضبا على يزيد بن المهلب قبل توليه الخلافة ، ولم يكن راضيا عن العلاقة الوثيقة التى كانت تربطه بسليمان بن عبد الملك ، والتى أعطته الفرصة ليتصرف بكثير من مظاهر الغرور وخاصة بعض الأعمال التى عرفت عن يزيد والتى تتسم بالاسراف فى الهبات والعطايا التى كان يعتبرها عمر من أموال الدولة وليست ملكا ليزيد ، وقد صرح عمر بن عبد العزيز بموقفه من يزيد لأحد خلصائه فقال : « العجب لأمير المؤمنين (سليمان) ، استعمل رجلا على أفضل ثغور المسلمين . فقد بلغنى عمن يقدم من التجار من ذلك الوجه أنه يعطى الجارية من جواريه مثل سهم ألف رجل . أما والله ، ما الله أراد بولايته — فعرفت أنه يعنى يزيد — فقلت : يشكر بلاؤهم أيام الأزارقة »[٥٤] . وكان عمر يعلن عن كراهيته لآل المهلب ويقول : « هؤء جبابرة ولا أحب مثلهم »[٥٥] .

والواقع أن يزيد قد أظهر خلال حكم سليمان بن عبد الملك كثيرا من مظاهر التكبر والاعتداد بالنفس الذى وصل الى أن يتحدى أفراد

---

(٥٢) الكامل ، نفسه .
(٥٣) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٣٠٢ .
(٥٤) راجع : الطبرى ، ج٦ ، ص٥٢٨ — ٥٢٩ .
(٥٥) الكامل ، ج٥ ، ص٤٩ .

الأسرة الحاكمة ويواجههم بأعنف العبارات ، ومن الأمثلة على هذا ما رواه ابن قتيبة من أن سليمان بن عبد الملك سأل فى مجلسه يوما يزيد بن المهلب : فيمن العز بالبصرة؟ فقال : فينا وفى حلفائنا من ربيعة، وكان عمر بن عبد العزيز حاضرا فاستاء من هذا[٥٦] ، كما يروى أن يزيد بن عبد الملك أبدى ملاحظة على عطر كان يتعطر به يزيد بن المهلب أغضبته ، فوجه اليه ابن المهلب عبارات عنيفة جاء فيها : الى يقال مثل هذا الكلام وأنا ابن المهلب بن أبى صفرة ، والله لئن وليت الخلافة وأنا حى لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف »[٥٧] .

وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان ، وحاول أن يتشفع لأبيه عند عمر بن عبد العزيز ولكن الخليفة كان مصرا على أخذ يزيد بالمال الذى ذكره فى كتابه لسليمان ، وكأن الخليفة أراد الانتقام من صلف يزيد وغروره فأمعن فى تعذيبه والتشهير به ، فيروى أنه ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل وشهر به بين الناس ، فلما صاح يزيد مناديا على أهل قبيلته من الأزد ، مستنجدا مما يحل به من تحقير ، سارع من همس فى أذن الخليفة برد يزيد الى محبسه خوفا من أن ينتزعه قومه غضبا له فرده عمـــر الى الحبس ، فلم يزل يزيد فى حبسه حتى بلغه خبر مرض عمر بن عبد العزيز[٥٨] .

كانت العلاقة بين يزيد بن المهلب وولى العهد يزيد بن عبد الملك سيئة للغاية ، وقد أشرنا الى الطريقة التى تعامل بها ابن المهلب معه من قبل ، فلما بلغ يزيد بن المهلب أن عمر بن عبد العزيز على فراش

---

(٥٦) عيون الأخبار ، ص٢٩١ .
(٥٧) ابن أعثم ، م٤ ، ص٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٥٨) طبرى ، ج٦ ، ص٥٥٧ — ٢٥٨ .

الموت فكر فى الهرب من محبسه خوفا من بطش الخليفة الجـديد ، ويروى أن سوء العلاقة يرجع فى المقام الأول ، الى أن يزيد بن المهلب عذب أصهاره آل أبى عقيـل عشيرة الحجاج فى خـلافة سليمان بن عبد الملك[٥٩] فشفع يزيد بن عبد الملك فى أخت لزوجته (وهى ابنة أخى الحجاج) لدى يزيد بن المهلب ، فلم يقبل شفاعته ، فهدده ابن عبد الملك ان أصبحت الخلافة له ليقطعن من جسده ، فرد عليه ابن المهلب : لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف[٦٠] .

راسل يزيد بن المهلب أهل بيته ومواليه من محبسه معلنـا عن رغبته فى الفرار ، فأعدوا له ذلك مثلما حدث من قبل عندما فر من سجن الحجاج ، وأغدق يزيد الأموال على عامل حلب وعلى الحراس المكلفين به ، وأعلمهم أن عمر بن عبد العزيز قد ثقل فى مرضه وليس يرجى منه، وان ولى يزيد وهو فى حبسه سفك دمه ، فساعدوه على الفرار ، وانتهى به المطاف الى البصرة، فلما بلغ مأمنه كتب الى عمر بن عبد العزيز : انى والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسى ، ولكنى لم آمن يزيد بن عبد الملك[٦١] فقال عمر : اللهم ان كان يزيد يريد بهذه الأمة شرا فاكفهم شره ، وأردد كيده فى نحره »[٦٢] .

---

(٥٩) أبو زكريا الأزدى، تاريخ الموصل ، ص٣ (القاهرة ١٩٦٧).
(٦٠) الكامل ، ج٢ ، ص٥٧ .
(٦١) تاريخ الموصل ، ص٣ .
(٦٢) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٦٤ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٣٦٤ — ٣٦٥.

الفصل السادس

ثورة آل المهلب على الدولة الأموية

وموقعة العقر (١٠٢هـ)

كان من أهم مشاغل يزيد بن عبد الملك بعد أن تولى الخلافة سنة ١٠١هـ هو طلب يزيد بن المهلب والقبض عليه . فكتب الى والى البصرة فى ذلك الوقت عدى بن أرطأة الفزارى ، يأمره بأخذ الحيطة من يزيد وتحذيره لأن أول ما يفكر فيه يزيد هو أن يلجأ الى البصرة حيث الأعوان والأنصار ، كما أمر الخليفة والى البصرة أن يأخذ من بها من آل المهلب وشيعتهم فيحبسهم ، فوقع فى قبضته : المفضل وحبيب ومروان بنو المهلب[1] .

أقبل يزيد بن المهلب من الشام وهو لا يعلم أن أخبار هربه قد سبقته الى البصرة ويجهل ما حدث من والى البصرة ضد اخوته وأنصاره، فالتقى به أخوه محمد بن المهلب فيمن اجتمع اليه من أهله وقومه ومواليه قبل دخوله البصرة ، وكان واليها قد حشد الأجناد وخندق حولها تحسبا لمجيء يزيد ومن معه ، ورغم ذلك فان البصرة كانت بالنسبة لآل المهلب

---

(١) طبرى ، ج٦ ، ص٥٧٩ .

سكنا ودارا فكانت تعرف ببصرة المهلب ، فلما أقبل يزيد اخترق جيوش عدى ودفاعاته دون مقاومة أو اعتراض ، فيروى ابن الأثير « فأقبل يزيد لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم الا تنحوا له عن طريقة . فأقبل يزيد حتى نزل داره ، فاختلف اليه الناس »[٢] .

ولما اجتمع معظم أهل البصرة حول يزيد بن المهلب ، كاتب عدى بن أرطأة فى الصلح ، على أن يطلق اخوته وعشيرته من الحبس ، وتعهد يزيد أن يتركه فى البصرة حتى يحسم الصراع بينه وبين يزيد بن عبد الملك ، ولكن عدى رفض الاستجابة للصلح[٣] وكان ذلك فى أواخر سنة ١٠١هـ .

استعد يزيد للدخول فى مواجهة ضد والى البصرة ومواجهة الخلافة الأموية فى دمشق فحشد الرجال والأنصار لهذا الغرض ، وكان جوادا سخيا فأقبل عليه الناس ، وكان يغدق عليهم بقطع الذهب والفضة فى الوقت الذى شح عليهم والى البصرة لعدم مقدرته على التصرف فى الأموال التى تحت يده الا باذن من الخليفة[٤] . وانتهى الأمر باستيلاء يزيد على البصرة وأطلق سراح من بالحبس من أخوته وأنصاره وأتى بعدى بن أرطأة فحبسه مكانهم[٥] واستولى على بيت مال البصرة مما جعل فى يده أخطر سلاح يمكن أن يستخدمه ضد أعدائه ، فأغدق الأموال على رجاله وبعث العمال الى الأهواز وفارس وكرمان[٦] ، وجمع رجاله

---

(٢) الكامل ، ج٥ ، ص٧١ .

(٣) نويرى ، ج٢١ ، ص٣٨٤ .

(٤) طبرى ، ج٦ ، ص٥٨١ .

(٥) تاريخ الموصل ، ص٨ .

(٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، ص٢٩٣ .

وشيعته وخطب فيهم وحدد أهدافه من الخروج على يزيد بأنه لا يدعى لنفسه الخلافة ، ولكنه يدعوهم الى كتاب الله وسنة رسوله[٧] .

كان من سوء طالع يزيد بن المهلب وجود الحسن البصرى فى ذلك الوقت بما له من آراء فى اعتزال الفتن ، وحث أتباعه على عدم الدخول طرفا فى المنازعات ، فيروى أن الحسن لما سمع خطاب يزيد فى رجاله قال : « ان هذا الذى يدعو الى كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ، هو الذى كان يقتل الناس بالأمس فى هوى بنى أمية »[٨] وسوف تكون هذه الدعوة من عوامل هزيمة يزيد فيما بعد .

استخلف يزيد بن المهلب أخاه مروان على البصرة[٩] وتحرك بحشوده فى اتجاه واسط « وحشدت له الأزد وأحلافها ، وانحدر اليه أهله وخاصته »[١٠] ، وانضمت اليه أعداد كبيرة من أهل الكوفة ومن الثغور ، وأحصى ديوان ابن المهلب مائة وعشرين ألف مقاتل ، ورغم ذلك فقد كان يتمنى أن يكون فى صفوفه من بخراسان من قومه الأزد[١١] ، وكان يزيد قد بعث أخاه مدرك بن المهلب الى خراسان وعليها عبد الرحمن ابن نعيم ليحشد له الحشود ، ولكن ابن نعيم لم يستجب له ، وحرض بنى تميم على التعرض لمدرك ومنعه من الوصول الى خراسان خوفا على

---

(٧) راجع : ابن أعثم ، م٤ ، ص٢٤٥ — ٢٤٦ .
(٨) الكامل ، ج ٥ ، ص٧٦ .
(٩) تاريخ الموصل ، ص ٩ .
(١٠) المسعودى ، مروج ، ج٣ ، ص١٩٩ ، الروض المعطار ، ص ٤١٨ .
(١١) الكامل ، ج ٥ ، ص٧٩ .

نفسه من غضب الخلافة الأموية فى دمشق(١٢) ، ولكن الأزد سارعت باخراج ألفين من فرسانها لاستقبال مدرك ، ومنعوا بنى تميم من التعرض له بسوء ، ويروى ابن الأثير ، أن الأزد كانت لها وجهة نظر واضحة فى هذا الصراع الدائر ضد الخلافة الأموية ، عبر عنه أحدهم لمدرك بن المهلب الذى قال له : « انك أحب الناس الينا وقد خرج أخوك، فان يظهر فانما ذلك لنا ونحن أسرع الناس اليكم وان تكن الأخرى فوالله مالك فى أن يغشانا ما يعرنا فيه من البلاء ، فانصرف عنهم »(١٣).

حشد الخليفة يزيد بن عبد الملك فى مواجهة يزيد بن المهلب جيشا كثيفا تقدره المصادر ما بين سبعين الى ثمانين ألف رجل ، ووضع على قيادته أحد أبطال الفتوحات الأموية أخاه مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك(١٤) وتحرك هذا الجيش الى العراق وقدم الكوفة فى أوائل سنة ١٠٢هـ ، ويبدو أن الجو كان باردا والطقس غير مناسب للقتال حتى ان مسلمة قال : « ليت هذا المزونى ، يعنى ابن المهلب ، لا كلفنا اتباعه فى هذا البرد »(١٥) .

ويبدو أن خبر وصول جيش الخلافة الى الكوفة قد أثار الذعر والاضطراب بين صفوف رجال يزيد بن المهلب الذى ساءه ذلك ، وشعر بأن الخوف بداية الهزيمة ، فاجتمع برجاله ووقف فيهم خطيبا فقال : « ما هذا الاضطراب أن قيل جاء مسلمة والعباس ، فوالله ما مسلمة

---

(١٢) تاريخ الموصل ، ص٨ .

(١٣) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٨٦ .

(١٤) المسعودى ، التنبيه ، ص٢٩٤ .

(١٥) المزون : عمان وهو اسم من اسمائها (المبرد ، ص ٢٤٠) ؛ الكامل ، ج ٥ ، ص٧٤ .

الا جرادة صفراء •• وما أهل الشام الا طغام قد حشدوا ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة ، فأعيرونى أكفكم ساعة تصفعون بها خراطيمهم، فما هى الا روحة أو غدوة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين »[١٦] •

ترك يزيد بن المهلب واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وسار حتى نزل فى مكان بالقرب من الكوفة يسمى العقر[١٧] ، وكان قد بعث أخاه عبد الملك فى محاولة لضرب الكوفة والاستيلاء عليها ، فاصطدم عبد الملك بجيش يقوده العباس بن الوليد وانتهى الأمر بينهما بهزيمة عبد الملك الذى انسحب بمن معه والتقى بأخيه عند العقر[١٨] • وأقبل مسلمة بن عبد الملك ونزل بمواجهة ابن المهلب فى صفر سنة ١٠٢هـ ولم يبدأ القتال بين الجانبين الا بعد ثمانية أيام[١٩] حدثت خلالها تطورات خطيرة فى صفوف يزيد بن المهلب •

أرسل مسلمة بن عبد الملك الرسل الى يزيد بن المهلب يسأله أن يحقن الدماء ويرجع عما هو عليه ، وتعهد له فى مقابل ذلك أن يوليه ويولى اخوته ما يرغبون من البلاد ، وأعلن استجابته لدعوة يزيد الى الكتاب والسنة[٢٠] التى أعلنها لأصحابه • ويبدو أن مسلمة كان يعلم

---

(١٦) الحميرى ، الروض ، ص٤١٩ ، المسعودى ، مروج ، ج٣ ، ص ٢٠٠ •

(١٧) العقر بأرض بابل من ناحية الكوفة بالعراق ، بين واسط وبغداد (الروض ، ص٤١٨) •

(١٨) المسعودى ، التنبيه ، ص٩٤ ، تاريخ الموصل ، ص١٤ •

(١٩) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٨٧ •

(٢٠) ابن أعثم ، م٤ ، ص٢٥١ •

حقيقة الأوضاع فى جيش يزيد واختلاف الآراء والنحل بين رجاله ، فقد أوجدت دعوته الى قبول الكتاب والسنة انقساما خطيرا فى صفوف يزيد يذكرنا بهذا الانقسام الذى حدث من قبل فى موقعة صفين •

وكيفما كان الأمر فان يزيد بن المهلب عندما بدأ اعداد جيشه للمواجهة وأعد خطة الهجوم على جيش الخلافة الأموية ، وجد معارضة من بعض رجاله وعلى رأسهم السميدع الكندى من بنى مالك بن ربيعة[٢١] .وأيده فى ذلك أبو رؤبة صاحب المرجئة وأتباعه • وكان رأيهم أن ينتظروا ولا يبدأوا بقتال حتى يرد القوم برأيهم الذى زعموا أنهم قبلوه منهم[٢٢] • ولكن مسلمة بن عبد الملك كان قد هيأ جيشه للقتال، فاضطر يزيد الى الخروج لمواجهته رغم المعارضة التى حرمته من تنفيذ خططه فى المبادرة بالهجوم ، فجعل على ميمنته حبيب بن المهلب ، وعلى ميسرته المفضل بن المهلب[٢٣] ودارت عند العقر معركة عنيفة بين الجانبين أجمعت المصادر على أن أصحاب يزيد قد خذلوه خلالها فانهزموا عنه وولى أكثرهم الأدبار[٢٤] فيروى ابن الأثير أن مسلمة أمر أحد رجاله بحرق الجسر الذى عقده على نهر الفرات ، فلما رأى أصحاب ابن المهلب الدخان انهزموا ،فلما رأى يزيد ذلك تعجب من سبب انهزامهم وفرارهم[٢٥] ولاشك أن الدخان ليس هو السبب فى فرار أصحاب يزيد ، وسوف نعرض لأسباب هزيمة العقر فيما بعد •

---

(٢١) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٨٣ .
(٢٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٠ .
(٢٣) الروض ، ص٤١٩ .
(٢٤) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٩٥ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٣٨٦ .
(٢٥) الكامل ، ج٥ ، ص٨٢ .

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة يزيد ، ولما وصله خبر قتل أخيه حبيب شعر بهوان الحياة ، فاخترق صفوف جيش مسلمة فى فدائية وبسالة وكأنه يبغى الموت بشرف فى ساحة القتال التى طالما صال وجال فيها سنوات طويلة ، وقتل كل من كان يعترض طريقه حتى تكاثر عليه أهل الشام فقتلوه وقتل معه محمد بن المهلب[٢٦] ، ويروى اليعقوبى أن يزيد بن المهلب خاض هذه المعركة وهو يعانى مرضا شديدا فكان « مبطونا شديد العلة »[٣٧] . ولما قتل يزيد بن المهلب ، كان أخوه المفضل مازال يقاتل جيش مسلمة ، فلما وصله خبر قتل أخوته : يزيد وحبيب ومحمد « تفرق النـاس عنه »[٢٨] ، فانسحب المفضل الى واسط وكان عليها معاوية بن يزيد بن المهلب وكان تحت يده عدد من الأسرى فلما بلغه هزيمة يزيد وقتله وما أصاب أعمامه ضرب أعناق الأسرى انتقاما لقتلاه[٢٩] .

تجمع من بقى على قيد الحياة من آل المهلب بالبصرة بمازال فى حوزتهم من أموال ومتاع وأعدوا السفن فى طريقهم الى قندابيل[٣٠] وكان على امارتها وداع بن حميد الأزدى الذى ادخره يزبد بن المهلب

---

(٢٦) تاريخ الموصل ، ص١٢ — بعد قتل يزيد قال الفرزدق فى رثائه:

ولا حملت أنثـى ولا وضعت
بعـد الأغر أصيب بالعقـر
ذهب الجمال من المجالس كلها
وخلا لفقـدك مجلس النصر

(٢٧) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٢٨) الكامل ، ج ٥ ، ص٨٤ ، النويرى ، ج٢١ ، ص٣٨٨ .

(٢٩) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٣١١ ، تاريخ الموصل ، ص١٢ .

(٣٠) قندابيل مدينة بالسند وهى قصبة ولاية الندهة (راجع معجم البلدان لياقوت) .

لمثل هذا اليوم ، فكان قد أوصاه عندما ولاه قندابيل بأن تكون حصن أمان لآل المهلب اذا حل به مكروه[31] .

عوامل هزيمة يزيد بن المهلب فى العقر (صفر سنة ١٠٢هـ)

تضافرت عدة عوامل فى نكبة يزيد وآل المهلب فى يوم العقر ، وما تبع ذلك اليوم من مذبحة لاحق خلالها الأمويون آل المهلب فى كل مكان وكأنهم كانوا يرمون الى القضاء عليهم ومحو ذكرهم من الوجود، وأهم هذه العوامل فى رأينا :

١ — الانقسام داخل صفوف جيش يزيد وبين قواده ، وقد أثار هذا الانقسام وعمقه ، ما قام به الحسن البصرى — وهو فقيه له مكانته وأنصاره فى البصرة — من تشكيك الناس فى جدوى القتال وراء يزيد ، وواجه الحسن يزيدا أثناء خطابه فى أصحابه فى مسجد البصرة ، وحرض الناس على عدم الوثوق فى ادعاءات يزيد ، وعدم المشاركة فى الفتنة ، وكان يصيح فيهم : « أيها الناس ، الزموا منازلكم وكفـوا أيديكم ، واتقوا الله ربكم ، لا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة »[32] .

ولاشك أن هذه الدعوة كانت لها تأثير خطير على جيش يزيد بن المهلب ، مما جعل البعض يميل الى رأى الحسن البصرى ، وعندما حاول والى البصرة مروان بن المهلب أن يحشد الناس ليزيد بعد تحركه فى اتجاه العقر ، كان الحسن البصرى له بالمرصاد ولم يستطع مروان أن

---

(٣١) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٥ .

(٣٢) ابن أعثم ، م٤ ، ص٢٤٩ — قارن : الطبرى ، ج٦ ، ص٥٨٧ — ص٥٨٨ .

يتصدى له لأن أنصاره كانوا على استعداد للوقوف فى وجه مروان اذا تعرض له بمكروه[٣٣] • ومن وجهة أخرى فان عناصر من المرجئة — وهم يمثلون احدى الفرق الاسلامية التى ترفض الاشتراك فى الفتن، ولا تؤيد فريقا دون آخر — كانوا بين صفوف جيش يزيد بن المهلب ولعل ما دفعهم الى انخراطهم فى جيشه ما أغدقه يزيد على جنده من العطايا والهبات ، وفى الوقت الذى كان يحتاج فيه يزيد الى حشد قواه لمواجهة أعدائه ، خرج أحد رجاله وهو السميدع واعترضه قائلا : « انا قد دعوناهم الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر ، ولا نريدهم بسوء حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا • قال أبو رؤبة — وكان رأس طائفة من المرجئة ومعه أصحاب له — هكذا ينبغى »[٣٤] •

٢ — الثقة الزائدة فى النفس التى تلغى الحذر ، وتصل الى الغرور من جانب يزيد بن المهلب ، فقد كان أبوه من قبل يتحرز من أعدائه ولا يستهين بهم فى كل الأحوال ، وقد تربى يزيد فى هذا الجو وخاض فى حياة أبيه العديد من المعارك ومر بالكثير من التجارب ، وكان المفروض أن يعى الدرس ، ولكنا نلاحظ فى هذه المعركة أن يزيد كان ينظر الى أعدائه بدون اكتراث ، وكأن الانتصار عليهم مسألة وقت ، مع العلم بأن الخليفة الأموى قد وجه لقتاله قائدين من أقرب الناس اليه ، أحدهما وهو مسلمة كان أحد أبطال الغزو والجهاد فى الجبهة

---

(٣٣) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٩٤ •

(٣٤) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٩٣ ، الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٠ •

البيزنطية ، وبالرغم من ذلك فقد سخر يزيد من هذه القيادة ، ولام رجاله لتخوفهم من أهل الشام ، وقد يغفر له ما قاله تشجيعا لجنوده، ولكنه قلل من شأن أعدائه ولم يحسن تقدير قوتهم ، فمن بين ما قاله لأصحابه : انه قد ذكر لى أن هذه الجرادة الصفراء — يعنى مسلمة بن عبد الملك ، وعاقر ناقة ثمود — يعنى العباس بن الوليد — أنه ليس همهما الا التماسى فى الأرض ، والله لو جاء أهل الأرض جميعا وليس الا أنا ، ما برحت العرصه حتى تكون لى أو لهم »[٣٥] وتساءل فى تعجب : « قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون جاء أهل الشام ومسلمة ، وما أهل الشام؟ هل هم الا تسعة أسياف سبعة منها الى وسيفان على »[٣٦] .

ونتيجة لهذا الاعتداد الشديد بالذات لم يستجب لمشورة قواده وأهل بيته ، وكان قد استشارهم عندما توجه الى واسط عن رأيهم فى الخطوة التالية فاقترح عليه حبيب بن المهلب وبعض قواده أن يخرج بأصحابه الى فارس فيتحصن بشعابها وجبالها ويستولى على القلاع والحصون فينضم اليه من بها من قومه ومواليه ، فرفض يزيد هذه الفكرة[٣٧] فذكره حبيب بأنه قد سبق ونصحه عندما استولى على البصرة أن يسارع فيرسل خيلا للاستيلاء على الكوفة ، وكان واليها قد عجز عن التصدى ليزيد عندما مر عليه حين قدومه من الشام ، وليس معه الا سبعون رجلا ، فيسبق اليها أهل الشام ، وكان أهل الكوفة على استعداد لتأييد يزيد ويفضلون أن يلى أمرهم على أن

---

(٣٥) الطبرى ، ج٦ ، ص٥٩٢ .
(٣٦) الكامل ، ج٥ ، ص ٧٥ .
(٣٧) تاريخ الموصل ، ص١١ .

يخضعوا لأهل الشام ، فلم يستمع يزيد لنصيحة حبيب[٣٨] .

كما أنه حين أوشكت الهزيمة أن تحل بيزيد فى العقر ، نصحه بعض رجاله أن ينصرف الى واسط ويتحصن بها وقال : « فيأتيك مدد أهل البصرة ، ويأتيك أهل عمان والبحرين فى السفن ، وتضرب خندقا .. » فقال له : قبح الله رأيك .. الموت أيسر على من ذلك[٣٩] .

وأخيرا .. تفرق الناس عن يزيد بن المهلب فى الوقت الذى كان فى أمس الحاجة الى تماسكهم واتحادهم ، والواقع أنهم لم يفرقهم الدخان الذى انطلق من الجسر المحروق ، ولكن معظـم الذين كانوا يحاربون فى صفوف يزيد فى تلك المعركة كان يجمعهم المال ، وتفرقهم الرهبة والخوف ، لاسيما وأنهم يواجهون جيش الخلافة الأموية ، وعلى رأسه مسلمة بن عبد الملك ، وكان هذا يعنى بالنسبة لهم خروجا على السلطة الشرعية بعكس حروبهم التى سبق أن خاضوها تحت قيادة آل المهلب سواء ضد الأزارقة وهم أعداء الدولة وخارجون عليها ، أو ضد الأقاليم التى أعادوا اخضاعها أو فتحوها ، فهى أعمال فى صالح الدولة الأموية وتحت رايتها . لذلك كان من السهل على البعض أن يجد مبررا للانسحاب والهرب عند الشعور بالخطر . وكان هذا موقف بعض العناصر القريبـة من آل المهلب ، وخير مثـال على هذا موقف أزد خراسان[٤٠] الذى سبق أن أشرنا اليه .

وكيفما كان الأمر ، فان المفضل بن المهلب تولى زعامة الأسرة فى هذا الوقت الحرج ، فيروى الطبرى : أن معاوية بن يزيد بن المهلب حين قدم البصرة من واسط ، حمل معه الخزائن وبيت المال ، فأراد

---

(٣٨) الكامل ، ج ٥ ، ص٧٧ .

(٣٩) تاريخ الموصل ، ص١١ .

(٤٠) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

أن يتأمر على آل المهلب ، فاجتمعوا وقالوا للمفضل أنت أكبرنا وسيدنا وولوه قيادتهم[٤١] ، فركب المفضل بآل المهلب فى السفن من البصرة ، ورست السفن فى البحرين للراحة والتزود بالمؤن فالتقى بهم واليها من قبل يزيد بن المهلب ويدعى « هرم بن القرار العبدى » فنصحهم بألا يتركوا سفنهم وقال : « انى أتخوف عليكم ان خرجتم من هذه السفن أن يتخطفكم الناس وأن يتقربوا بكم الى بنى مروان »[٤٢] .

ورغم ما فى قول هرم من بعض الحقيقة ، فما كان أحد من الأعوان والأنصار يستطيع أن يحمى آل المهلب فى ذلك الوقت من بطش الدولة الأموية بسطوتها وجيوشها ، ولكنه فى نفس الوقت كان يرغب فى ابعادهم عن التفكير فى الاحتماء بالبحرين .

ويروى العوتبى أن السفن التى تحمل آل المهلب توجهت من البحرين الى عمان وكان على ولايتها فى ذلك الوقت زياد بن المهلب الذى رحب بأسرته فى وطنهم الأصلى وشجعهم على البقاء فى عمان بين أهلهم ، ولكنهم أبوا ذلك[٤٣] ، والواقع أنه ليس هناك ، فى رأينا ، ما يبرر عدم لجوء آل المهلب فى هذه المرحلة الحرجة الى وطنهم عمان حيث الأمان والاستقرار بالنسبة لهم ، الا احتمال أنهم كانوا يأملون فى التحصن بقندابيل ، وأن ينضم اليهم أهلهم ومواليهم فى فارس مما قد يعطيهم الفرصة فى الحماية من بطش الدولة الأموية ومواصلة الكفاح ضدها للثأر مما أصابهم .

وعلى أى حال فان آل المهلب مضوا فى سفنهم حتى اذا كانوا بحذاء

---

(٤١) الطبرى ، ج٦ ، ص٦٠١ .
(٤٢) نفسه ، ص ٦٠٠ .
(٤٣) الأنساب ، ج٢ ، ص١٥٦ .

جبال كرمان خرجوا الى الساحل وحملوا ما معهم على الدواب ، وفى كرمان اجتمع الى المفضل فلول من أنصاره ، وكانت عيون مسلمة بن عبد الملك تراقب تحركات آل المهلب للقضاء عليهم قبل أن يتمكنوا من حشد حشودهم واصطناع الأعوان ، فبعث مسلمة فى أثرهم « مدرك ابن ضب الكلبى » الذى لحق بهم ، والتقى الجانبان فى معركة عنيفة قتل فيها عدد كبير من أصحاب المفضل ، كما رجع بعضهم وطلبوا الأمان من مسلمة فأمنهم[٤٤] ، وتمكن المفضل من الخروج من المعركة بمن معه من آل المهلب ومن بقى على ولائه لهم قاصدا قندابيل على رجاء الاحتماء بها حسب الاتفاق الذى كان بين يزيد بن المهلب وبين واليها وداع بن حميد ، وفى قندابيل كان ينتظر آل المهلب مفاجأة أخرى، فيبدو أن وداع قد أعاد تقدير الموقف ، وأدرك أن دخول آل المهلب قندابيل فيه نهايته ، لاسيما أن يزيد بن عبد الملك قد بعث جيشا آخر بقيادة هلال بن أحوز التميمى فى طلب آل المهلب وأمره أن لا يلقى منهم من بلغ الحلم الا ضرب عنقه[٤٥] .

لحق هلال بن أحوز آل المهلب قبل دخولهم قندابيل ، ورفع راية الأمان للناس فكان أول من استجاب للأمان وداع صاحب قندابيل ، وتفرق الناس عن آل المهلب الذين تقدموا بسيوفهم فقاتلوا بفدائية واستبسال حتى قتل معظمهم وهم : المفضل وعبد الملك وزياد ومروان بنو المهلب ، ومعاوية بن يزيد بن المهلب ، والمنهال بن أبى عيينة بن المهلب وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة بن المهلب ، ولم يفلت منهم الا أبا عيينة

---

(٤٤) راجع التفاصيل ، الطبرى ، ج٦ ، ص٦٠١ — ٦٠٢ .

(٤٥) المسعودى ، مروج ، ج٣ ، ص ٢٠٠ .

ابن المهلب وعثمان بن المفضل اللذين فرا الى بلاد الترك[٤٦] .

وبعث هلال بن أحوز برؤوس القتلى والنساء الأسرى من آل المهلب الى مسلمة بن عبد الملك وهو بالحيرة ، فلما أراد مسلمة بيع الأسرى عرض الجراح بن عبد الله الحكمى مائة ألف درهم ثمنا لهم ، فلم يأخذ منه مسلمة شيئا وأطلق سراحهم[٤٧] أما الأسرى الرجال فأمر يزيد ابن عبد الملك بضرب أعناق من بلغ الحلم منهم ، والغريب فى الأمر أن غلاما من آل المهلب لم يقتل لصغر سنه ، ولكنه صاح بهم أن يقتلوه. وقال : « أنا أعلم بنفسى فقد احتلمت ووطئت النساء فأمر به فقتل »[٤٨] ، وقام يزيد بن عبد الملك بمصادرة أملاك آل المهلب فى كل مكان وأقطعها لأنصاره[٤٩] .

---

(٤٦) البلاذرى ، ص ٥٤٠ ، النويرى ، ج٢١ ، ص ٣٩٠ .
(٤٧) الكامل ، ج ٥ ، ص٨٦ .
(٤٨) النويرى ، ج٢١ ، ص٣٩١ .
(٤٩) راجع : البلاذرى ، ص٤٥١ — ٤٥٤ .

الخاتمـــــة

ظل آل المهلب على عدائهم للدولة الأموية بعـد النكبات التى حلت بهم ، ولكن لم يكن لهم دور مؤثر فى الأحداث لسنوات طويلة بعد نكبتهم على يد يزيد بن عبد الملك ، وان كانت المصادر التى بين أيدينا لم تعطنا المعلومات اللازمة عن آل المهلب فى الفترة التالية لنكبتهم الا أن ما ذكر بعد ذلك فى أحداث سنة ١٢٩هـ يدل على أن آل المهلب قد بدأوا يستعيدون نفوذهم ويجمعون حولهم الأنصار وخاصـة فى مدينتهم البصرة وأقليم الأهواز الذى عاصر انتصاراتهم على الأزارقة. ففى أثناء الصراع بين أبى مسلم الخراسانى والقائد الأموى نصر بن سيار على خراسان سنة ١٢٩هـ ظهر على مسرح الأحداث أحد أفراد آل المهلب وهو « سليمان بن حبيب بن المهلب » فيروى اليعقوبى :

« وثب سليمان بن حبيب بن المهلب بالأهواز سنة ١٢٩هـ ، فوجه اليه القائد الأموى يزيد بن عمر بن هبيرة ، نباتة بن حنظلة الكلابى ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم انهزم سليمان فلحق بفارس »[1] مما يوحى بأنه انضم الى جيوش أبى مسلم الخراسانى الذى كان يحارب الدولة الأموية فى ذلك الوقت .

ويبدو أن أمراء آل المهلب ظلوا يساندون الدعوة العباسية حتى حققت أهدافها بالقضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ ، فعندما أعلن أبو سلمة الخلال صاحب الدعوة العباسية فى الكوفة الدعوة للعباسيين، قام سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب باعلان الثورة فى البصرة ولبس

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٣٤١ .

السواد شعار الدولة العباسية وحارب والى الأمويين واستولى على المدينة[٢] وقد كافأ العباسيون سفيان بن معاوية بأن أسندوا اليه ولاية البصرة ، وردوا اليه أملاك آل المهلب التى صادرتها الدولة الأموية[٣] .

(٢) اليعقوبى ، ج٢ ، ص ٣٤٥ ، الأنساب ، ج٢ ، ص١٥٦ — ١٥٧ .
(٣) الطبرى ، ج٧ ، ص٤٥٨ ، البلاذرى ، ص٤٥١ .

ثبت بأهم مصادر البحث

— ابن الأثير : على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) :
الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٢ .

— ابن أعثم الكوفى : أبو محمد أحمد (ت ٣١٤هـ) :
كتاب الفتوح ، بيروت ١٩٨٦ .

— البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) :
١ — فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .
٢ — أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ .

— البغدادى : عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ) :
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، بيروت ١٩٥٥ .

— الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :
البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٨٥ .

— ابن حجر العسقلانى : شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٥٢هـ) :
الاصابة فى تمييز الصحابة ، بيروت ١٣٢٨هـ .

— ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد الأندلسى (ت ٤٥٦هـ) :
جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٨٢ .

— الحميرى : عبد المنعم السبتى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى) :
الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ١٩٨٣ .

— ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، بيروت ١٩٨٦ .

ـ ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن على (ت ٦٨١هـ) :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ،
بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ .

ـ الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :
١ ـ سير أعلام النبلاء ، بيروت بدون تاريخ .
٢ ـ كتاب المشتبه ، القاهرة ١٩٦٢ .

ـ أبو زكريا : يزيد بن محمد بن أياس (ت ٣٣٤هـ) :
كتاب تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ .

ـ ابن سعد : أبو عبد الله محمد الزهرى (ت ٢٣٠هـ) :
الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

ـ سيف البطاش : سيف بن حمود بن حامد :
- تاريخ المهلب القائد وآل المهلب ، عمان ١٩٨٨ .

ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :
تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،
طبعة دار المعارف بالقاهرة .

ـ ابن عبد البر : النمرى القرطبى (ت ٤٦٣هـ) :
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، بيروت ١٣٢٨هـ .

ـ العوتبى الصحارى : سلمة بن مسلم (ت القرن الخامس الهجرى):
كتاب الأنساب ، تحقيق محمد الصليبى ، عمان ١٩٨٤ .

ـ أبو الفرج الأصفهانى : على بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) :
الأغانى ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

ـ ابن قتيبة الدينورى : عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) :
المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٩ .

— قدامة بن جعفر : (ت ٣٢٩هـ) :

الخراج وصنعة الكتابة ، العراق ١٩٨١ •

— ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤هـ) :

البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٣ •

— المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥هـ) :

الكامل فى اللغة والأداب ، بيروت بدون تاريخ •

— محمد بن أبى عثمان الحازمى :

كتاب النسب ، القاهرة ١٩٧٣ •

— المسعودى : على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦هـ) :

١ — التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٨١ •

٢ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٦ •

— نور الدين السالمى : أبو عبد الله محمد بن حميد بن سلوم :

تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، طبع القاهرة بدون تاريخ •

— النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ) :

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب •

— أبو هلال العسكرى (ت فى بداية القرن الخامس الهجرى) :

كتاب الأوائل ، الرياض ١٩٨١ •

— الهمذانى : أبو بكر أحمد بن ابراهيم :

مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ •

— ياقوت الحموى : شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ) :

معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٥ •

— اليعقوبى : أحمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ) :

تاريخ اليعقوبى ، بيروت بدون تاريخ •

الفهرست

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩١ / ٧٨٣٣

I. S. B. N. 977 - 00 - 2154 - 7

دار نشر الثقافة بالاسكندرية

